الاتجاه الشعرى
عند
إبراهيم بن المهدى

دكتـــور

علاء الدين محمد أحمد خضر

مدرس الأدب والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بالزقازيق (فرع القرين)

الاتجاه الشعرى
عند إبراهيم بن المهدى

دكتور
علاء الدين محمد أحمد خضر
مدرس الأدب والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالزقازيق (فرع القرين)

مقدمة

إن دراسة شعر إبراهيم بن الخليفة المهدى العباسى يعكس اهتمام الخلفاء بتأديب أبنائهم وتثقيفهم بالثقافة العربية حيث يتكون لديهم الذوق الأدبى والحس اللغوى ، كما أن هذا الشعر صدى للحياة العباسية وما فيها من أحداث وظروف مختلفة من الناحية السياسية وتقلباتها ، والحياة الاجتماعية وما شاع فيها من الترف والتحضر والشغف بالغناء ، وإغراق فى المجون والزندقة ، والغلو فى الزهد والنسك ، ونلمس فى شعر إبراهيم بن المهدى روح العصر ، ورهافة الشعور ، وقد نفذ فيه بذوقه المتحضر ليأتى أسلوبه رقيقا عذباً فى مناحى الأغراض الشعرية التى تناولها .

وقد تناولت هذه الدراسة تحليل أشعار إبراهيم بن المهدى . وطبقت عليها المنهج التكاملى ، وكانت خطة البحث كما يلى :

المبحث الأول : إبراهيم بن المهدى حياته وفنه .

المبحث الثانى : الفنون الشعرية .

المبحث الثالث : ظواهر أسلوبية وفنية .

الخاتمة .

والله من وراء القصد فهو حسبنا ونعم الوكيل

الباحث

المبحث الأول
إبراهيم بن المهدى حياته وفنه
١ ـ حياته

ولد إبراهيم بن المهدى فى غرّة ذى القعدة سنة اثنتين وستين ومائة ، وقيل آخر سنة ثلاث وعشرين بمدينة سر من رأى ، وأمه اسمها (شكلة) من سبى نهاوند، قُتل أبوها (شاهمرد) ، ((وحُملت إلى المنصور، فوهبها لـ " محياة " أم ولده ، فتعهدتها وعنيت بتربيتها ، وتخيرت لها الطائف بيئة عربية نقية ، لتدرج فى ظل الحياة الصافية والفطرة العربية الأصيلة ، وهناك نشأت وتفصحت وأشربت اللغة العربية الفصحى فى منطقها السليم ، ومهدها العريق))(١) ولما عادت شكلة من الطائف وهبتها (محياة) إلى المهدى فأنجب منها ولده إبراهيم بن المهدى .

وكانت(شكلة)تقول الشعر ومن ذلك قولها فى أخ لها اسمه (أحمد):

أحمد تفديه شباب فِهـــرِ ∴ من كل ماريب وأمر نُكُـــرِ
قد جاء مثل الشمس غبّ قَطرِ ∴ فى حسن بدرٍ واعتدال صدر
بُنَىَّ أحشانى وذخر ذخرى ∴ شد إلهى بأبيك ظهرى
وزاده رب العلى من عمرى ∴ وذب عنه خانقات الدهر (٢)

الأبيات تتسم بالسهولة والوضوح ، جاءت صورها تقليدية . قريبة المأخذ ، فأحمد كالشمس ، وحسنه كالبدر ، وتحمل الألفاظ بين طيّاتها عاطفة أمومية .

---

(١) انظر إبراهيم بن المهدى ، الشاعر الأديب الفنان ، د/ محمد حسين عارف صـ١٨٣ ـ ١٨٥ ، مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية ؛ والأغانى ١٠ /١١٩ ، دار الكتب العلمية بيروت ؛ وأشعار أولاد الخلفاء من كتاب الأوراق لأبى بكر بن يحيى الصولى ٣ /١٧ ، ١٨ ، ط دار السيرة بيروت ؛ ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ت / إحسان عباس ١ /٣٩ ، ط دار الثقافة بيروت .
(٢) أشعار أولاد الخلفاء ٣ /١٧ .

ويبدو أن (شكلة) أم إبراهيم بن المهدى كان لها أثر فى حياة ابنها الشاعرية ، واتجاهه إلى الغناء ، لأن الجوارى كن يجدن الأشعار والغناء .

أوصافه :

كان إبراهيم بن المهدى رجلاً سميناً ، آدم ، غليظ الشفة ، حسن العين ، حسن الأنف ، حسن الكلام ، يحظى باحترام الناس ، وقد اختلف المؤرخون حول شخصيته فذهب بعضهم إلى أنه كان ذا عقل نابه ، ورأى سديد ، يستشيره الناس فى أمورهم ، روى الفضل بن مروان : « أن إبراهيم بن تمهدى كان أصح الناس رأياً لغيره . أفسدهم رأياً لنفسه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أنا أنظر فى أمر غيرى برأى سليم من الهوى . ويغلب على رأيى فى أمر نفسى ما أهواه » (١).

وذهب البعض الآخر إلى أن إبراهيم بن المهدى شخصية مستهترة لا تعبأ بالقيم ، وليس عندها وازع دينى تقبل على الشهوات والإغراق فى الملذات ، فقد كان « يتعهر ويتهتك ويغنى لكل أحد ويشرب الخمر » (٢).

ويبدو أن هذه الأخلاق كانت فى عهد الشباب ، فكانت الظروف مهيّأة لإبراهيم بن المهدى فى الإقبال على الملذات والشرب لما يعرف عن الشباب من طيش ونزق بالاضافة إلى كونه ابن خليفة يعيش فى رغد من العيش . وتهيأ السبل له فى سبيل إرضاء نزواته. وكذلك ما شاع فى العصر العباسى من ترف ومجون .

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء ٣ /١٨ .وانظر إبراهيم بن المهدى، د/ محمد عارف حسين صـ ١٩٢ ؛ والعقد الفريد لابن عبد ربه ، ت / أحمد أمين ٦ /٣٦ ، ط دار الكتاب العربى بيروت ١٩٨٣م .

(٢) أشعار أولاد الخلفاء ٣ /٢٠ .

وعندما تقدم السن بإبراهيم بن المهدى أقلع عن هذه العادات السيئة وأظهر ندمه على الطيش والنزق وأعلن توبته « وقد ترك الغناء فى آخر أيامه ، وقد حلف بين يدى الرشيد أنه إذا بلغ الستين لم يشرب ولم يغن »(١).

وكان ذا عقل راجح « وكان رجلاً عاقلاً فهماً أديباً شاعراً راوية للشعر وأيام العرب خطيباً فصيحاً »(٢) ، ولعل هذه الصفات التى اجتمعت فى إبراهيم بن المهدى جعلت الناس يبايعونه بالخلافة التى دامت « سنتين إلا خمسة وعشرين يوماً (٢٠٢ ـ ٢٠٤ هـ) قضاها فى إخماد الفتن والثورات »(٣).

إبراهيم بن المهدى والخلافة :

بايع أهل بغداد (إبراهيم بن المهدى)، بعد قتل (محمد الأمين) ، فلما ظهر قواد المأمون استخفى ، فلم يزل كذلك مدة طويلة إلى أن قدم المأمون بغداد ، وقد أراد (إبراهيم بن المهدى) الهرب ؛ لكن جنود المأمون ظفروا به وكان متخفياً فى ثوب امرأة ، وأسلموه إلى المأمون الذى أمر بإحضار الناس على مراتبهم فحضروا فجئ بإبراهيم فى قيد وهو ملتحف بملحفة النساء والمقنعة التى كان مقنعا بها فى عنقه، فسلم ، فقال له المأمون: لا سلَّم الله عليك ولا حفظك. فقال : على رسلك يا أمير المؤمنين ، فلقد أصبحت ولى ثأرى. والقدرة تذهب الحفيظة ، ومن مُدَّ له فى الأمل هجمت به الأناة على التلف ، وقد أصبح ذنبى فوق كل ذنب ، وعفوك فوق كل عفو . فإن تعاقب فبحقك ، وإن تغفر فبفضلك ، فقال له المأمون : إن هذين أشارا علىّ بقتلك ، وأومأ إلى المعتصم وإلى ابنه العباس ، فقال : قد

(١) انظر أشعار أولاد الخلفاء ٣ /٢٢ .
(٢) انظر الأغانى ١٠ /١١٩ دار الكتب بيروت .
(٣) انظر إبراهيم بن المهدى ، د / محمد عارف حسين صـ١٨٧ .

أشارا بما يشار بمثله فى مثلى ، وما غشاك فى عظم الخلافة ، ولكن الله عوّدك من العفو عادة ، فأنت تجرى عليها دافعاً ما تخاف بما ترجو ، فقال : أطلقوا عمى ، فقد عفوت عنه ، فقال: فى عتب هذا:

وعفوت عمن لم يكن عن مثله ∴ عفو ولم يشفع إليك بشافع (١)
إلا العلو عن العقوبة بعدما ∴ ظفرت يداك بمستكين خاضع

الشاعر والغناء :

الشعر عند إبراهيم بن المهدى ذاتى يصور نفسيته، وما يختلجه من عواطف وأحاسيس ، وقد ارتبط شعره بالغناء « والغناء كان أساس تعلم الشعر،ويقترن بذكر أدوات موسيقية مختلفة »(٢)، وكان إبراهيم بن المهدى «شاعراً عالماً بالغناء مقدماً فى الحذق»(٣). وكانت هناك علاقة وثيقة بين الشعر والغناء منذ الجاهلية عند أقدم شعرائه ، ويشير (الأصفهانى) إلى أن بعض الشعراء كانوا يتغنون ببعض شعرهم مثل السليك بن السلكه ، وعلقمه بن عبدة الفحل . والأعشى (٤).

وكانت نساء العرب تؤلف ما يشبه الجوقات ، ويغنين فى حفلاتهم لاعبات على المزاهر (٥)، وقد استخدم العرب الهزج فالخفيف الذى يرقص عليه ، ويمشى بالدف والمزمار فيطرب

---

(١) انظر كتاب أشعار أولاد الخلفاء ٣ /١٨، ١٩ ، والأغانى ١٠ /١٤٤، ١٤٥، ١٤٦ (دار الكتب بيروت)، وتاريخ الطبرى ٩ /٤١٩ ـ ٤٢١، ٤٤٨ ، مؤسسة الأعلام بيروت ، إبراهيم بن المهدى ، د/ محمد عارف ١٨٦ ، وتاريخ بغداد لأبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى ٦ /١٤٣ . دار الكتب العلمية بيروت .

(٢) العصر الجاهلى، د/ شوقى ضيف ١٩١ ، ط ١٦ دار المعارف مصر.

(٣) أشعار أولاد الخلفاء ٣ /١٧ .

(٤) انظر الأغانى ، لأبى فرج الأصفهانى ١٨ /١٣٤ ، ط ساسى . ١١٤/١ ط دار الكتب بيروت .

(٥) العمدة لابن رشيق ، ١ /٣٧ . ط أمين هندية .

ويستخف الحليم ، هذا كان غناء العرب قديماً حتى جاء الله بالاسلام، وفتحت العراق ، وجلب الغناء الرقيق من فارس والروم ، وتغنوا المجزأ المؤلف بالفارسية والرومية، وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير(١) .

وقد بلغ (إبراهيم بن المهدى) من حسن الغناء والعلم إلى نهاية ما بعدها نهاية حتى أنه كان يجاذب اسحاق الموصلى فى صنعة حسنه شبه بها صنعة الأوائل منها أنه غنى فى شعر مروان بن أبى حفصة :

طرقتك زائرة فحىّ خيالها ∴ حسناء تخلط بالجمال دلالها (٢)

وقد كان الخلفاء العباسيون يعجبون بغناء إبراهيم بن المهدى ويطربون له، وكان الرشيد يحب أن يستمع إلى إبراهيم بن المهدى، فخلا به مرات إلى أن سمعه ، ثم حضر معه سليمان بن أبى جعفر فقال لإبراهيم : عمك سيد ولد المنصور بعد أبيك ، وهو يحب أن يسمعك فلم يتركه حتى غنى بين يديه شعر الأحوص :

إذ أنت فينا لمن ينهاك عاصيه ∴ وإذ أجُرُّ إليكم سادراً رسنى

فأمر له هارون بألف درهم ثم قال له ليلة ، ولم يبق فى المجلس عنده غير جعفر بن يحيى : أنا أحب أن أشرف جعفراً بأن تغنيه صوتاً فغناه فى صوت صنعه فى طريقة الرمل والشعر للدارمى:

كأن صورتها فى الوصف إذ وصفت ∴ دينارعين من المصريّة العتق

فأمر له الرشيد بمائة ألف دينار (٣) .

وبلغ من إجادة إبراهيم بن المهدى للغناء إقبال الخلفاء والأمراء لسماعه ، كما غبطه اسحاق الموصلى وترجاه ألا ينازعه فى الغناء

(١) العمدة لابن رشيق ٢ /٢٤١ .
(٢) أشعار أولاد الخلفاء ٣ /٢٣ .
(٣) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ٣١ .

وقال له يوماً : يا سيدى أنت ابن الخلفاء ، وأخو الخلفاء ، وإذا بلغت ما تريد من الغناء فأنت أنت فيه ، وإذا قصرت قلت : كسلت ، ولم أنشط ، وتفعل ما تريده ، وأنا أغنى على كل حال وفى كل وقت ، فقال : صدقت (١).

شعر إبراهيم بن المهدى :

لم يترك إبراهيم بن المهدى ديواناً فيه أشعاره ، وإنما جاءت متفرقة فى ثنايا الكتب القديمة كالأغانى ، وتاريخ الطبرى ، وأشعار أولاد الخلفاء ، والمختار من قطب السرور .... وغيرها . «ويعد إبراهيم بن المهدى واحداً من أعلام الشعر فى العصر العباسى الأول. موهبة وطبعاً ، وجودة وكثرة ، وسلاسة وفصاحة ، ..... ، لكن غلبة صنعته فى الموسيقى والغناء على شعره جعلته لايكاد يذكر مع أعلام الشعر فى هذا العصر إلا قليلاً »(٢)

وقد تناول أغراض الشعر المختلفة كالمدح والاستعطاف والاعتذار والغزل والهجاء وشكوى الزمان والحكم والمواعظ ، وقد صدر فيها عن قريحة صافية وطبع موات وصاغها فى أسلوب عذب وسلس يتناسب مع كونه مغنياً .

وقد جاء شعره مرآة صادقة للعصر الذى عاش فيه ، مصوراً ما كان يدور من صراع سياسى ، كما عكس الانفتاح الثقافى على الحضارات المختلفة كالفارسية والهندية وغيرها .

---

(١) انظر أشعار أولاد الخلفاء ٣ /٣١ ؛ المختار من قطب السرور للرقيق القيروانى ، ت/ محيى الدين عبد الحميد ، صـ ٢٤٠. دار الجيل بيروت ط ٥ عام ١٩٨١ م .

(٢) إبراهيم بن المهدى . د/ محمد عارف حسين صـ ٢٠٣ .

وفاته :

ظل (إبراهيم بن المهدى) يحظى بمكانة سامية عند المأمون ، « بالود والتكريم ، وينال المكانة السامية والمنزل الجليل ، وبإعجاب الخليفة بشعره وغنائه إلى أن توفى المأمون ، ثم حظى بهذه المكانة وتلك المنزلة فى عهد ابن أخيه المعتصم ، وظل كذلك حتى توفى إبراهيم بن المهدى فى يوم الجمعة لتسع خلون من شهر رمضان سنة أربع وعشرين ومائتين بسرمن رأى ، وقيل إنه توفى فى أول سنة أربع وعشرين ومائتين »(١).

(١) انظر إبراهيم بن المهدى ، د/ محمد عارف حسين ، صـ ١٩١ ؛ وأشعار أولاد الخلفاء ٣ /١٨ .

المبحث الثانى
الفنون الشعرية
١ ـ المدح

المديح من الفنون العربية القديمة ، وفيه إرضاء للممدوحين بإضفاء الفضائل عليهم كالكرم والشجاعة والحلم والإقدام والصدق . ومدح الشعراء الخلفاء العباسيين والولاة والأمراء والقواد ، وقد تنوع مدحهم بين المبالغة والاعتدال طبقاً للنوال والعطايا ، ومدى علاقة الشاعر بالممدوح ، كما كان مرتبطاً بالسياسة وأحزابها ، وقد سجل الأحداث والفتن الداخلية التى دارت حول الصراع على الخلافة «وعلى الرغم من إجادة إبراهيم بن المهدى لفن المدح إلا أنه لايمكن أن يُعدَّ من شعراء المديح ، وذلك لأسباب وهى : قلة شعره منه . وأنه لم يتخذه طريقاً للكسب ، أى لم يحترفه احترافاً ، وأنه لم يمدح به إلا الخلفاء ، وفى ظل ظروف معينة ، وذلك كمدحه للخليفة المأمون »(١)

إذ يقول :

يا خير من ذملت إليه مطية ∴ بعد الرسول لآيس أو طامع
فعفوت عمن لم يكن عن مثله ∴ عفو ولم يشفع إليك بشافع
فرحمت أطفالاً كأفراخ القطا ∴ وعويل عانسة كقوس النازع
قسماً وما أدلى إليك بحجة ∴ إلا التضرع من مقر خاشع
ما إن عصيتك والغواة تمدنى ∴ أسبابها إلا بنية طائع (٢)

استدعى الشاعر شخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) ـــ عن طريق اللقب (الرسول) الذى يدل على الذات مع صفات المدح ، وعلى هذا تكون شهرة وذيوع الصيغة الاستدعائية المستخدمة فى

(١) إبراهيم بن المهدى ، د/ محمد عارف حسين صـــ٢٠٧ .
(٢) أشعار أولاد الخلفاء ٣ /١٩ ؛الأغانى ١٠ /١٢٣ ــ ١٢٤ .

النص متوافقة فنياً مع وحدات السياق . وهى الخطوة الأولى على طريق نجاح هذا التوظيف فنياً (١)، فالخليفة المأمون «خير من شدت إليه الرحال ــ بعد الرسول ــ لأنه منتهى كل راغب ، يرجو الفضل والنوال ، وأمل كل يائس من الحياة ، يبتغى منه الأمل والتفاؤل »(٢).

فالشاعر يتلطف مع المأمون فى نبرة نلمس فيها غير قليل من التذلل والاسترحام فالمأمون عفا عنه ، ورحم أطفاله ، على الرغم من جريمته الكبيرة ، وذنبه الفادح ، وبهذا العفو رحم المأمون صغار الشاعر من المذلة والمهانة واليتم ، ويقسم الشاعر بأغلظ الأيمان ليبرر ما ارتكبه من ذنب .

وفى تصوير (إبراهيم بن المهدى) لوقع العفو عنه تبدو الألفاظ مغلفة بالخشوع التام ، والخضوع الكامل ، تفوح منها رائحة الاسترحام واستدرار العطف ، أوحت بها ألفاظ المد مثل [شافع / خاضع / فازع / خاشع / طائع / مستكين] .

كما جاءت هذه الأوصاف ليصور بها : معاناته وصدقه فى التوبة وعدم عصيانه ، وفى تصوير(الشاعر) لعفو الخليفة حاصر الحدث بدائرة الزمن الماضى [عفوت / ظفرت / رحمت] ، كما خلت من حروف المد والإطالة ليوحى بسرعة العفو لما يتميز به الخليفة من قلب كبير وخلق قويم ، ولذلك يلح الشاعر على مدح الخليفة ويشكره فيقول :

أعنيك يا خير من تعنى بمؤتلف ∴ من الثناء ائتلاف الدر فى النظم
أثنى عليك بما جددت من نعم ∴ وما شكرتك إن لم أثن بالنعم

ويخلص من مدحه إلى استعطاف (المأمون) معدداً مآثره عليه:

رددت مالى ولم تمنن علىّ به ∴ وقبل ردك مالى ما حقنت دمى

---

(١) انظر أشكال التناص الشعرى ، أحمد مجاهد صـ ٢٩ .
(٢) إبراهيم بن المهدى ، د/ محمد عارف حسين صـ ٢٠٨ .

فنوت منه وما كافأتها بيـــــــد ∴ هـى الحياتـان مـن مـوت ومـن عـدم
البر لى منك وطء العذرعنـدك لى ∴ فيمـا أتيـت فلـم تعـذل ولم تلـم (١)

فى وصف الشاعر لعفو المأمون استمد معجمـه مـن التـراث الاسلامى [موت / عدم / البر / عدل] ، واعتمد فى أسلوبه علـى الترادف بين [الموت والعدم / لم تعذل ولم تلم] لاستعطاف المأمون والإشادة به ، وبعفوه الذى لم يتأخر ، وجاء سريعا ، ولذلك رصـد الشاعر هذه السرعة بدائرة الزمن الماضى ، وينهى الشاعر أبياتـه بالإشادة بـ (الخليفة المأمون) وإضفاء ثوب فضفاض عليـه مـن صفات العفو والعدل والكرم يقول :

تعفو بعدل وتسطو إن سطوت بـه ∴ فـلا فقـدناك مـن عـاف ومنـتقم (٢)

سيطر الفعل المضارع على البيت فجاء مرتين [تعفـو/تسـطو] ليوحى بدوام صفة العدل فى حالتى العفو والعقاب ، وعـدم الجـور والظلم ، كما أوحى المصدر [عدل] بثباتـه ودوامـه فـى خلـق (المأمون) فالعدل متأصل فيه مجبول عليه .

ويرى أستاذنا الدكتور/ محمد عارف حسين، أن مدائح (إبراهيم) صادقة فى (المأمون) يقول :

« ونحس فى مديح إبراهيم لابن أخيه الخليفة المأمون صدقا . ذلك أن مديحه له لم يصنعه ملقاً ولا رياءً ، ولا رغبة فى عطاء ، بل صاغته أحاسيس نفسه الصادقة ، وخلجات قلبـه الشـاعرة بعميـق الفضل نحو المأمون ، فمديحه ــ لذلك ــ وليد تجربة حقة ، ونبـع موقف صادق ، إنه موقف العفو عنه ، وشموله بالتكريم والتقريب .

(١) أشعار أولاد الخلفـاء ٣ /١٩ ؛ والأغـانى ١٠ / ١٤٧ . دار الكتـب ببيروت .
(٢) أشعار أولاد الخلفاء ١ /٢٠.

فلا غرو أن يعبر عن هذه المكرمة ، وتلك اليد ـ بل الأيادى ـ فى شعر صادق ، قوى العاطفة ، متدفق الشعور »(١) .

ويبدو لى أن (إبراهيم بن المهدى) لم يكن صادقا فى مدحه للخليفة المأمون ، وإنما دفعه لذلك خوفه من (المأمون) أن يقتله . فصاغ هذا المدح ليفوت الفرصة على المتربصين به ، والذين يدفعون الخليفة لقتله « قال له المأمون : إن هذين أشارا علىّ بقتلك . وأومأ إلى المعتصم وإلى ابنه العباس ، فقال : قد أشارا بما يشار بمثله فى مثلى ، وما غشاك فى عظم الخلافة ، ولكن الله عوّدك من العفو عادة ، فأنت تجرى عليها ، دافعاً ما تخاف بما ترجو ، فقال : أطلقوا عمى ، فقد عفوت عنه »(٢).

ومما يدل على زيف مدح إبراهيم بن المهدى للخليفة المأمون . وتملقه ، وعدم صدقه ، هجاؤه (للمأمون) فقد كان الشاعر يتحين الفرصة تلو الأخرى ليهجو الخليفة ، فالمأمون حطّم أحلامه فى الخلافة ، وقبض عليه ، وجعله أضحوكة أمام الناس الذين أمر المأمون بإحضارهم على مختلف مراتبهم (٣) ، ولا شك أن (إبراهيم ابن المهدى) أسرّ ذلك فى نفسه ، وامتلأ قلبه موجدة وبغضا للمأمون، ولذلك « كان مع إحسان المأمون يشنؤه ويعيب أفعاله وله فى ذلك أشعار منها :

صدّ عن توبة وعن إخبات ∴ ولهأ بالمجون والقينات
ليس ينفك مازجاً فى يديه ∴ خمر قطربُل بماء الفرات
أن يغص المظلوم فى حومة الجو ∴ رباداء بين الحشا واللهاة (٤)

(١) إبراهيم بن المهدى ، د/ محمد عارف حسين صـ٢١٢ .
(٢) أشعار الخلفاء ٣ /١٨ .
(٣) انظر أشعار الخلفاء ٣ /١٨ .
(٤) المصدر السابق صـ ٣٢ .

ونلاحظ فى هذه الأبيات أن إبراهيم قد طعن المأمون فـــى أعـــز جانب من جوانب شخصيته وهو جانب التقوى والورع اللذين يجـــب ان يتحلى بهما الإنسان المؤمن ، فضلاً عن كونه خليفـَ للمسلمين ، وذلك حين صوره صاداً راغباً عن التوبة لله والخضـــوع لـــه ، فـــى الوقت الذى شغل فيه نفسه باللهو والمجون مع الجوارى الحســـان ، كما يصفه منهمكاً على شرب الخمر، فهو لايفتـــأ يتناولهـــا ، وكمـــا صوره غير معني بأمور المسلمين وبخاصة حين يضمه مجلس يجمع بينه وبين أخيه أبى عيسى وندامى شراب مـــن النســـاء الســـمينات اللواتى يفوح منهن العطر وتنتشر فى أبدانهن الرائحة الطيبة »(١).

(١) إبراهيم بن المهدى ، د/ عارف محمد حسين صـــــ٢١٦ . ٢١٧ .

٢ ـ الهجاء

عرف العرب فن الهجاء منذ بداية الشعر الجاهلى ، وقد دار الهجاء على كل ما يناقض مثلهم، والتى كانت تجمعها كلمة المروءة، وهى تعنى عندهم فضائلهم من الشجاعة والكرم ، وحماية الجار.... ، واشتهر منهم الحطيئة والأعشى ، وفى عصر صدر الإسلام تهاجى الشعراء بالبعد عن الدين وعدم التمسك بالفضائل والأخلاق الحميدة . وفى العصر الأموى برزت العصبية القبلية وتولد عنها فن النقائض . وتهاجى فيه الشعراء بالطعن فى الأنساب ، والبعد عن المروءة كنقائض جرير والفرزدق والأخطل وذى الرُّمة .

وفى العصر العباسى تغيرت مجريات الحياة العربية التى قلّ الاهتمام بعنصرها العربى للانفتاح الثقافى ، والدور الفارسى فى قيام الدولة العباسية ، وقد ضعفت العصبية العربية ، وعادت مقومات فن الهجاء إلى الجاهلية لتستمد المعانى والأفكار من الشعر الجاهلى ، وتهاجى الشعراء بالعيوب الخلقية بجانب المثالب الخلقية ، ومن أشهر شعراء الهجاء بشار بن برد ، وحماد عجرد ، وابن الرومى وغيرهم (١).

وقد هجا إبراهيم بن المهدى بعض المعاصرين له كالخليفة المأمون الذى قد مدحه ، واستعطفه قبل ذلك فيقول :

صدّ عن توبة وعن إخبات ∴ ولهاً بالمجون والقينات
ليس ينفك مازجاً فى يديه ∴ خمر قطربُل بماء الفرات

فالمأمون لم يتورع فى دينه ، ويظهر خلاف ما يبطن ، وأقبل على المحرمات ، واتصف بالمجون واللهو والعبث وشرب الخمر . وحاشيته بطانة سوء ، ويتصف بالجور والظلم ؛ ويلهو مع النساء البدينات :

---

(١) انظر العصر العباسى ، د/ شوقى ضيف صـ١٦٧ وما بعدها ، ط٦، دار المعارف مصر .

ما يبالى إذا خلا بأبى عيسى وشرب من بدن عطرات (١)
أن يغص المظلوم فى حومة الجو ∴ رياء بين الحشا واللهاة

وتأمل لفظة (صدّ) فقد بدأ بها الشاعر ليحاصر البيت بدائرة الزمن الماضى ، ليوحى بعبث المأمون ومجونه ، ويظهره منافقاً منذ زمن ، كما أوحت لفظة (ولهاً) بشغف المأمون وعشقه للمجون والعبث مع النساء ، كما استغل الشاعر صيغة الفعل المضارع (وينفك) للإيحاء بإمعان المأمون فى معاقرة الخمر فى كل وقت وآن فى الحال والاستقبال ، وبذلك يرمز الشاعر من طريق خفى بعدم أحقية المأمون فى الخلافة لفساد جانبه الأخلاقى والدينى . فمن يتصف بذلك لايستحق أن يكون إماماً وخليفة للمسلمين لأنه يفتقر إلى القدوة .

ويتهكم الشاعر فى هجائه لعبد الملك الزيات وزير المعتصم :

يا بؤس يوم كاسف ∴ إن لم يغير فى غده
لأمة وزيرها ∴ عاصر زيت بيده
يظهر نصحاً وجهه ∴ وغشه فى كبده (٢)

فالنص فيه إدانة لعبد الملك الزيات ، حيث وصمه بالنفاق والتملق والخداع واللؤم ، وهى صفات خلقية تنقص من شأنه . وهذه روح جديدة عمت فى الهجاء عند الشعراء « ويخيل إلى الإنسان أن أصحابه لم يتركوا مُثلاً خلقية أو نفسية فى شخص إلا صوروها ، وكأنما يريدون أن يُطهروا المجتمع منها ، ولم يتورعوا أحياناً عن هجاء الخلفاء والوزراء »(٣)، ولذلك جاءت الألفاظ وقد سيطرت عليها حروف المد والإطالة لتوحى بعمق هذه المثالب

(١) هو أحمد ــ أو صالح ــ بن هارون الرشيد أخو المأمون . وكان ماجناً عابثاً ،انظر إبراهيم بن المهدى، د/ محمد عارف صـ٢١٦
(٢) أشعار أولاد الخلفاء ٣ /٣١ .
(٣) العصر العباسى الأول ، د/ شوقى ضيف صـ١٦٧ .

وتأصلها فى المهجو فنرى [يا بؤس / كاسف / يغير / وزيرها / عاصر] ، وبدأ البيت الثالث بالفعل المضارع [يظهر] ليوحى بخداع مظهر المهجو ، فنفاقه متجدد ومستمر ولذلك حاصره الشاعر بدائرة زمن الحال والاستقبال، وللايحاء بشدة خداعه ، وعدم صدقه فى معاملاته ، وفى تصوير سرعة غشه ولؤمه « خلت الألفاظ من حروف المد [نصحاً / وجهه / غشه / كبده] ، كما يهجو " إبراهيم ابن المهدى " شخصاً من بنى كعب ، ويدمغه بالشؤم والنحس . فشؤمه كالغبراء التى كانت سبباً فى الحرب بين عبس وذبيان ، وقد جاء ذلك فى معنى قريب ، ليس فيه عمق ولا غوص يقول :

فلا حيّى الوجه الذى جئتنا به ∴ إذا حيّيت الوجه الكريم المجالسُ (١)
يُشيم بنى كعبٍ وما أنت منهم ∴ كما شامت الغبراءُ قيساً وداحس

فى تصوير المهجو بشدة الشؤم تأتى الألفاظ لتوحى بنحسه (٢) وسوء طالعه عن طريق حروف المد والإطالة فنجد [يشيم / ما أنت / شامت / الغبراء / قيساً / داحس] .

وهكذا نرى الهجاء عند إبراهيم بن المهدى أدنى مرتبة من فنونه الأخرى ، لأنه لم يتبع طريقاً معروفاً يصل به إلى غايته ، فهو لم يعمد إلى ما يترك هجاءه أعلق بالقلب ، وألصق بالنفس ، وأسرع إلى الحفظ ، ولا بلغ به من الحقيقة والمرارة ما يوجع حقاً » .

ويرجع ذلك إلى قلة أبيات الهجاء عند إبراهيم بن المهدى فقد تناوله « فى حدود ضيقة ، ويظهر أن دينه وخلقه قد حالا دون انخراطه فى سلك الهجائيين »(٣) .

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء ٣ /٤٣ .
(٢) أبو تمام شاعر الخليفة ، د/ عمر فروخ ، صـ ١٣١ ، ١٣٢ . ط المكتب التجارى بيروت ١٩٦٩ م .
(٣) إبراهيم بن المهدى ، د/ محمد عارف حسين صـ ٢١٥ .

٣ ـ الاعتذار

الاعتذار غرض شعرى قديم ، يتلطف فيه الشاعر ، ويتنصل من ذنبه ، ويحيله على الواشين ، وقد اشتهر به (النابغة الذبيانى) فى اعتذارياته للنعمان بن المنذر .

وقد اعتذر (إبراهيم بن المهدى) فى أبيات صاغها لاسترضاء الخليفة (المأمون) ، متنصلا فيها من خروجه عليه فى أمر الخلافة، راجياً عفوه وسماحته ، ومشيداً بكرمه وعطفه ، ومن ذلك قوله :

أيا منعماً لم تزل مُفضلاً ∴ أدام الضنى سخطك الدائم
ظلمتُ فإن قلت لا بل ظلمـ ∴ تَ فإنى أنا الكاذب الآثم
وأستغفر الله من زلتى ∴ فإنى من جرمها واجم
يُفز الحليم ويكبو الجواد ∴ وينبو لدى الضربة الصارم(١)

النص يتناول حكاية تمرد الشاعر على الخليفة المأمون ، وسلك أسلوب الخطاب المباشر لاستمالة قلب المأمون [أيا منعما] . ويتلطف معه ، فأفضاله وكرمه وعفوه سجية فى طبعه . متجددة ومستمرة ، ولذلك حاصر الحدث بدائرة الزمن المستقبل والمستمر [لم تزل] ، وفى المقابل يعترف الشاعر بذنبه ، ويبدى ندمه وتوبته، ويلوم نفسه ، ويأسف لما بدر منه ، وهذا يفسر سيطرة الفعل المضارع على الأبيات [أستغفر / يفز / يكبو / ينبو] . ويلجأ الشاعر إلى التكرار المكثف لكرم المأمون [منعما / مفضلا] وهذا «يتلاءم مع سياق الاستعطاف الذى أحكم الشاعر نسجه »(٢) .

ويتمثل فى إلحاح الشاعر وتكرار أسفه واعتذاره ، وهذا التكرار المكثف فى النص يهدف إلى اهتمام الشاعر بإقناع (المأمون) ببراءته ، وإزالة ما به من سخط وغضب .

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء .
(٢) أشكال التناص الشعرى ، أحمد مجاهد صـ٦٣ ، النهضة المصرية العامة للكتاب .

كما استغل صيغة الفعل المبنى للمجهول [ظُلمت / يُغفر] لاستدرار عطف (المأمون) للتغاضى عن [زلته] التى تورط فيها ، فكل إنسان معرض للخطأ ، والله يقبل التوبة ، والكرماء يتسامحون يقول :

فها أنا العائد المستجير .·. فاحكم بما شئت يا حاكم
عصيت وتبت كما قد عصى .·. وتاب إلى ربه آدم
فقل قول يوسف لاتثريب ن فقد يغفر الغافر الراحم
فلست إلى زلة عائداً .·. يد الدهر ما قعد القائم (١)

استدعى الشاعر الشخصيتين التراثيتين [آدم / يوسف] عليهما السلام ، وقد ارتبط هذا الاستدعاء المباشر بحادثة التوبة والعفو ومقابلة الإساءة بالإحسان . وملامح هاتين الشخصيتين [آدم / يوسف] تناسبان تجربة الشاعر ، « ودراما النص تعتمد فى تشكلها الأساسى على أربع شخصيات »(٢) ، اثنان منها تراثية : يوسف وآدم؛ واثنان معاصرة: المأمون [الحاكم]، والشاعر، وبذلك «ينتخب من الحوادث التاريخية ما يراد دالاً ومتناسباً مع بنية قصيدته»(٣) فموقفه يتشابه مع موقف هاتين الشخصيتين ، وقد وظفهما فى خطابه الشعرى الذى يتمتع بحساسية خاصة لأن هذه الأسماء تحمل تداعيات تربطها بقصص تاريخية يعرفها القارئ ، وتنتمى إلى الثقافة الدينية وبذلك يستميل القلوب لتعفو عنه ، وتغفر زلته .

واستمد إبراهيم بن المهدى ألفاظه من المعجم الإسلامى ليؤثر على المأمون ويسترضى قلبه ليقبل اعتذاره فنجد [تبت / رب / آدم / يوسف / يغفر / الغافر / الراحم] ، وهذه الألفاظ تدور حول محور التوبة .

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ٢١ .
(٢) أشكال التناص الشعرى ، أحمد مجاهد صـ ٣٦٥ .
(٣) ذاته صـ ٣٦٠ .

واعتذاريات إبراهيم بن المهدى نحس فيها صدق اللهجة ، وسهولة اللفظ، وحسن ديباجته، وقد أسعفه فى ذلك ذوقه الحضرى: فإذا ذنبه يكبر فى نفسه،وإذا يحس كأنه أتى جريمة لا تغتفر (١) .

« وهنا نلاحظ أن اعتذار إبراهيم للخليفة المأمون قد استوفى شرائط الاعتذار فى مقاييس النقد الذى رآه ابن رشيق »(٢).

ولقد ترك اعتذار إبراهيم هذا أثراً فى نفس الخليفة المأمون . بل ملك عليه مشاعره،واستولى على عواطفه،فما لبث أن بكى ثم قال : علىّ به،فأتى به فخلع عليه وحمله وأمر له بخمسة آلاف دينار(٣).

٤ ـ الغزل

ارتبط الغزل بطبيعة الإنسان العربى وفطرته ، ولذلك لم يخلو منه عصر أدبى منذ الجاهلية وصدر الإسلام ، وقد دار شعر الغزل حول علاقة الحب بين الرجل والمرأة ، وبلغ من اهتمام الجاهليين به أن جاء فى مطالع قصائدهم كامرئ القيس وطرفة وزهير والأعشى وغيرهم ، وقد سار على دربهم من جاء بعدهم من شعراء العرب ، وأصبحت هذه المقدمة الغزلية من طقوس بناء القصيدة التقليدية . وقد وجد هذا النمط عند الشعراء العباسيين عدا طائفة من الشعراء سخروا من هذا المطلع ، ودعوا إلى استبداله بالخمر كأبى نواس وبشار ممن دعوا إلى التجديد فى القصيدة ، ومن الملاحظ أن الغزل لم يستقل بقصائد معينة فى العصر العباسى ، بينما جاء فى القصيدة المتعددة الأغراض (٤).

---

(١) العصر الجاهلى،د/شوقى ضيف صـ٢٨٦،ط١٦،دار المعارف بمصر .
(٢) إبراهيم بن المهدى ، د/ محمد عارف صـ٢١٤ .
(٣) الأغانى ١٠ / ١٢٤ نقلا عن كتاب ابراهيم بن المهدى، د/ محمد عارف صـ ٢١٤ .
(٤) انظر مذكرات فى الأدب العباسى، د/ أمين إبراهيم صـ ٧٥ . منشورات الجامعة المفتوحة ، ليبيا .

أما إبراهيم بن المهدى فله أبيات غزلية مستقلة عن باقى الأغراض ، وربما يرجع ذلك إلى طبيعة الشاعر الغنائية ، فقد كان مغنياً عالماً بالغناء ، فجاءت مقطوعاته الغزلية طيعة لينة قصيرة لتلائم غناءه ، أو غناء القينات ومن ذلك أبياته :

يا غزالاً لى إليه ∴ شافع من مقلتيه
والذى أجللت خدّ ∴ يه فقبلت يديه
بأبى وجهك ما أكـ ∴ ثر حسادى عليه
أنا ضيف وجزاء الـ ∴ ضيف إحسان إليه (١)

فقد شبّه محبوبته بالغزال ، وجمال المقلتين ، وحسن الخدين ، وهذه أوصاف تقليدية خارجية ، ليس فيها إباحة ، أو تحلل ، وعبر عن ذلك وعن شوقه بألفاظ رقيقة عذبة تناسب جو الغناء فنجد : [غزال / المقلة / قبلة / حساد / ضيف / إحسان] ، ولعبت حروف المد والإطالة دوراً فى إبراز مفاتن المرأة وبراعة جمالها فنرى [غزال / شافع / خديه / يديه / حسادى / إحسان] .

ويعبر عن أشواقه وحنينه لمحبوبته التى زادت من لوعته وشجونه ، وكانت سبباً فى أرقه وسهده فالغرام برح به ، يقول :

ونهيت نومى عن جفونى فانتهى ∴ وأمرت ليلى أن يطول فطالا (٢)
نظر العيون على العيون هو الذى ∴ جعل العيون على العيون وبالا

النص يتناول الحنين والفراق والشوق فى عذوبته ، وعذابه . ونقائه وطهارته ، وهذه المشاعر المتأججة جعلت النوم يفارق جفون الشاعر الذى سهر الليالى بسبب حبه ولوعته ، ولذلك رصد هذا الحب بالزمن الماضى [نهيت / انتهى / أمرت / طالا] ، وفى تعبيره عن سهره وسهده وطول ليله عبر بالزمن المضارع [يطول] ليوحى بالتجدد والاستمرار فى الحب وشدة الوجد ، وبتاريخ الهوى مما جعل

(١) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ٢٠ ، والأغانى ١٠ /١٤٣ ، دار الكتب العلمية بيروت .
(٢) أشعار أولاد الخلفاء ٣ /٢٢ .

الليل طويل لاينتهى ، وقد أوحت حروف المد والإطالة بذلك فنجد [ليلى / يطول / طالا / عيون / وبالا] .

ويصف الشاعر أحواله بعد الحب الذى جعله يفقد رشده ، وينفذ صبره ، وأصبح لا يطيق بعادا عن محبوبته فيقول :

أطعت الهوى وعصيت الرشد ∴ ولم تملك الصبر عمن تود(١)

لعبت إضافة الألفاظ إلى بعضها البعض(٢) دورا فى الإيحاء بعاطفة الشاعر المتوقدة التى أصبحت لا تتحمل تباريح الهوى ، وضنى الشوق ، انظر إلى إضافة لفظة [أطعت] إلى كلمة [الهوى] وما أشاعته من الانقياد التام للمحبوبة ، والغرق فى بحور حبها ، وأيضاً إضافة لفظة [عصيت] إلى لفظة [الرشد] فقد أوحت بإلغاء العقل ، والاستسلام إلى دقات القلب، والانقياد وراء العاطفة الجياشة. وكذلك إضافة الفعل المضارع المنفى [لم تملك] إلى لفظة [الصبر] فقد أشاع جواً من حرقة وتباريح الهوى جعلت الشاعر لا يستطيع صبراً على فراق محبوبته ، وقد لعب حرف العطف الواو دورا فى إثراء التجربة ، فإطاعة الهوى ، وعصيان التفكير الهادئ الرزين ، وعدم الصبر على الفراق،كلها مشاعرممتزجة مختلطة فى آن واحد .

ويصور الشاعر حال محبوبته من الصدّ والمنع، والشد والجذب. وأنها تمنيه بالوصال ، لكنها لا تفى بوعدها، وهى أشبه بالخيزرانة. لينة فى الكلام، صعبة المراقى، تضن على الشاعر بالوصال. يقول:

وقد تلين ببعض القول تبذله ∴ والوصل فى جبل صعب مراقيه
كالخيزران منيعاً منك مكسره ∴ وقد يرى ليناً فى كف لاويه
فتلك هم فؤاد أنت صاحبه ∴ لو أنها مرة كانت تجازيه (٣)
وإن فى طول ما ضنت عليه لما ∴ يسليه لو أن شيئاً كان يسليه

(١) أشعار أولاد الخلفاء ٣ /٣٩ .
(٢) لا أقصد الإضافة النحوية ، وإنما مجاورة الألفاظ لبعضها البعض .
(٣) أشعار أولاد الخلفاء ٣ /٣٩ .

استخدم الشاعر الأسلوب الخبرى فى بيان تحسره وألمه لعدم فوزه بلقاءٍ من محبوبته [التى تلين ببعض القول تبذله] ، [وفى طول ما ضنت عليه ما يسليه] ؛ كما سيطرت حروف الهمس فى الألفاظ لتوحى بالعاطفة المنكسرة والمشبوبة فى آن واحد ، لأن المحبوبة تضن على الشاعر بالوصال ، مما يورثه الحزن والألم [الوصل / صعب / مكسره / صاحبه / يسليه] ، كما أوحت حروف المد والإطالة بالمراوغة الشديدة من ناحية المحبوبة [تلين / مراقيه / الخيزران / منيعاً / لاويه / تجازيه / طول / يسليه] ، وفى تصوير الشاعر لهذه المراوغة المستمرة حاصر الأحداث بالزمن المضارع الذى يوحى باستمرار وكثرة وإجادة لعبة التمنع ، والشد والجذب [تلين / تجازيه / يسليه]، فالمحبوبة تبالغ فى الصد والمنع، وتلهب مشاعر وعاطفة الشاعر عندما تبدى له جانباً من محاسنها فتسحر لبه ، ويشتد تعلقه بها ، وما يكاد يتمتع بذلك ، ويمنى نفسه بالوصال سرعان ما تختفى عنه تاركة له المعاناة والألم والشجن والسهاد، وكأن ليل زيد إلى ليله فمنعه الرقاد، يقول فى عاطفة مشبوبة :

أرتك محاسناً منها اختلاساً ∴ تضن إضاءة البرق الخفى
ويلذع مهجتى ذو العذل فيها ∴ كلذع السوط خاصره البطى
كأن الليل زيد إليه ليل ∴ مقيم فاستمر على الشجى (١)

وسيطرة حروف الهمس فى النص توحى بالرقة والنعومة لحبيبة الشاعر، كما تعبر عن سحر اللقاء، وتشيع جواً معبقا بالرومانسية الحالمة وما فيه من آلام وأشجان الفراق، فنجد [محاسن / اختلاس / السوط / استمر] ، وقد وفق الشاعر فى حسن نظم الألفاظ فى رسم صورة جميلة لمحاسن المحبوبة ، وسحرها ودلالها فى إلهاب عاطفة ومشاعر إبراهيم بن المهدى عندما أظهرت له بعض محاسنها ومفاتنها [اختلاساً] ، وتأمل هذه اللفظة وما أشاعته

(١) أشعار أولاد الخلفاء ، صـ ٤٢، ٤٣ .

من جو روماتسى مفعم بالرؤى والأحلام ، وكذلك [تضئ / إضاءة]، فقد أضاف الفعل المضارع إلى مصدره ليعبر عن جمالها الأخاذ . وحسنها البارع ، وهذه أشياء ثابتة ومن صفاتها الطبيعية .

وهكذا نجد أشعار إبراهيم بن المهدى فى الغزل « تنم عن شاعرية فذة مصورة ، ولكنه غزل نفتقد فيه الإحساس الصادق بلوعة الحب ، وحرقة الوجد ، التى يشعر بها العاشقون . وبذلك لا نستطيع أن نعده فى عداد الغزليين العاشقين ، ذلك لأن غزله (١) » « غزل المترفين الذين ينتقلون بين قلوب الغانيات . يصورون مشاعر طارئة و مغامرات متكررة » (٢) .

٥ ـ الرثاء

غرض الرثاء من أصدق الفنون الشعرية عند إبراهيم بن المهدى إذ عبر عن فقد ولده (أحمد) تعبيراً صادقاً ينم عن حزن عميق، وألم دفين فى أبيات تفوح منها رائحة اللوعة والأسى ويقول:

نأى آخر الأيام عنك حبيب ∴ فللعين سح دائم وغروب
يؤوب إلى أوطانه كل غائب ∴ وأحمد فى الغياب ليس يؤوب
تبدل داراً غير دارى وجيرة ∴ سواى وأحداث الزمان تنوب
أقام بها مستوطناً غير أنه ∴ على طول أيام المقام غريب (٣)

يتفجع الشاعر على ابنه الذى وارى الثرى وانتقل إلى الآخرة حيث مقامه الطويل الأبدى يعانى الغربة ، وقد انعكس حزن الشاعر على النص الذى سيطرت عليه حروف المد والإطالة لتوحى بالألم الدفين والحزن الشديد والانتكاسة الكبيرة ، ومعاناة الشاعر الشديدة فنرى [آخر / الأيام / حبيب / دائم / غروب / يؤوب / غائب / الغياب

(١) إبراهيم بن المهدى ، د/ محمد عارف صـ ٢١٩ .
(٢) الشعر والشعراء فى العصر العباسى، د/ مصطفى الشكعه، صـ٧٥١، نقلا عن كتاب إبراهيم بن المهدى ، د/ محمد عارف صـ ٢١٩ .
(٣) أشعار أولاد الخلفاء ٣ /٤٤ .

/ داراً / دارى / سواى / أحداث / الزمان / تنوب / غريب] ، وتأمل لفظة [سح] وما أشاعته من حزن وكآبة دائمة وذلك بإضافتها للفظة [دائم] ، وأيضاً لفظة [غروب] لتوحى بانتهاء حياة ولده التى كانت شمساً مضيئة لوالده ، وبرحيله غاب النور من حياته .

وفى تصوير الشاعر لرحيل ولده يحاصر الحدث بالزمن الماضى [تبدل] فقد أصبح أثراً بعد عين ، وذكرى مؤلمة ، وفى تصوير وقع الفراق على نفسه يأتى بالزمن المتجدد والمستمر [تنوب] فالحزن متجدد ومستمر لا ينفك عن الشاعر ، لأن ابنه كان بطلاً مغوارا لا يهاب الأعداء ، ويجيد الضرب والطعان :

كأن لم يكن كالصقر أوفى بشامخ الـ ∴ ذرى وهو يقظان الفؤاد طلوب
كأن لم يكن كالرمح يعدل صدره ∴ غداة الطعان لهزم وكعوب
يفض الحديد المحكم النسج حده ∴ ويبدو وراء القرن وهو خضيب (١)

وقد كرر الشاعر [كأن لم يكن] مرتين ليكثف الصورة ويركز على إبراز قوة ولده فكان [كالصقر] وتأمل هذه اللفظة فقد خلت من حروف المد ، كما توحى بسرعة الانقضاض على العدو فى خفة وقوة ومهارة ، وكذلك لفظة [يفض] وما أشاعته من قوة وشدة بأس وذلك بإضافتها إلى [الحديد المحكم] ، كما استغل صيغة المبالغة لتوضيح صورة ولده وما امتازت به من شجاعة وفتوة فنرى [طلوب / كعوب / خضيب] .

ويتعجب الشاعر ويقف حائراً أمام لغز الموت ويعكس فلسفة الموت والحياة ، فهذا البطل القوى الشامخ ينهار ويعجز الأطباء عن علاجه وإنقاذه ،ويخر صريعاً بطعنات الموت يقول فى حيرة ودهشة :

جمعت أطباء العراق فلم يصب ∴ دواءك منهم فى البلاد طبيب
ولم يملك الآسون نفعاً لهجة ∴ عليها لأشراك المنون رقيب

(١) المصدر السابق صـ ٤٤ ، ٤٥ .

استغل الشاعر الخصائص اللغوية للتعبير عن تجربته فيأتى بصيغة الجمع [أطباء / الآسون / البلاد] لتوحى بعدم تقصيره فى علاج ابنه ومحاولة إنقاذه فقد عرضه على كثير من الأطباء ، وقدم بهم من كل البلاد . ولكن دون جدوى فقد وقفوا عاجزين أمام الموت، وتأمل لفظة [شراك] وما جسدته وأوحت به من شدة وكآبة الموت وذلك بإضافتها إلى لفظة [المنون] .

ويواسى الشاعر نفسه ، ويلهمها الصبر والسلوان لأنه عما قريب سيلحق بابنه :

وإنى وإن قدمت قبلى لعالم ∴ بأنى وإن أخرت منك قريب
وإن صباحاً نلتقى فى مسانه ∴ صباح إلى قلبى الغداة حبيب

فقد لجأ الشاعر إلى الطباق لتوضيح فكرته فعليه الصبر فنجد [قدمت / أخرت / صباح / مساء] . وبذلك يعبر الشاعر فى صدق عن عاطفة مشبوبة بالحزن والألم لفقد ابنه ، ومن الملاحظ أن إبراهيم بن المهدى لم يرثى أحداً غير ولده ، وربما يرجع ذلك إلى معاناة الشاعر مع من حوله وما كان يمر به فى حياته من تقلبات ونكبات فلم يجد إنساناً صادقاً يقف معه ويشد من أزره فى حب وإخلاص .

٦ ـ الحكم والمواعظ

ازدهرت الحكمة فى ظل الشعر العباسى ، وأصبحت من سمات هذا العصر كنتيجة للانفتاح الثقافى ، والامتزاج الحضارى بين العرب وغيرهم ، وقد جاءت جميلة تعبر عن معانى القصائد ومضامينها ، وقد أكثر الشعراء العباسيون من الحكم ، وجاءت منثورة فى أشعارهم ، تعبر عن حنكة وتجربة فى الحياة ، وقد وجدت هذه السمة عند شعراء المدرستين المحافظة والمجددة ، كأبى تمام

والمتنى وبشار بن برد ومسلم بن الوليد ، كما يدخل فى الحكمة الأمثال والمواعظ (١) .

وقد سئم (إبراهيم بن المهدى) من الواقع السياسى ، وما فيه من فتن واضطرابات ، فقد كان فى رغد من العيش ، وقد بايعه القادة بالخلافة ، وخلعوا المأمون ، وما لبثوا أن ثاروا عليه(٢)؛ لغضبهم على المأمون حيث أراد إخراج الخلافة من ولد العباس إلى ولد على بن أبى طالب ، ولتركه لباس آبائه من السواد ولبسه الخضرة شعار الشيعة .

وحديث إبراهيم بن المهدى عن الحكم والمواعظ يعبر عن هروب من واقع مرفوض من جانبه ، وهو يمثل ثورة إيجابية تحاول هدم هذا الواقع الفاسد ، فقد خبر الحياة ، وتنعم فيها ، وسرعان ما قلبت له ظهر المجن ، وقاسى فيها وتألم ، وقد استقى الحكمة من التأمل والفكر العميقين فى صروف الأيام ، وتقلبات الناس ، وجاءت هذه الحكم والمواعظ فى مقطوعات مستقلة يخاطب فيها العقل ، وفى نفس الوقت تصدر عن ومضات وجدانية تحمل زفرات وآهات عزيز قوم ذل ، رأى فى نفسه العبر والعظات ، فالدهر متقلب الأحوال ، فتتبدل القوة إلى الضعف والاستكانة ، والملك إلى فقر ، فيقول فى عاطفة مشبوبة بالحزن مغلفة بالصدق :

غدوت على الدنيا مليكاً مسلطاً ∴ ورحت وما أحوى بها قبس إبهام (٣)

تأمل لفظة [غدوت] وما أوحت به من عز وتملك ، وكذلك لفظة [رحت] لتوحى بالضياع وذهاب كل شئ ، وأيضاً لفظة [قبس]

(١) انظر العصر العباسى الأول ، د/ شوقى ضيف صـ ١٦٥ وما بعدها ، ط ٦ دار المعارف مصر .

(٢) انظر تاريخ الطبرى ، ت د/ عبد الأعلى محمد ٧ / ٤٥٩ وما بعده ، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات بيروت .

(٣) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ٢١ .

وإضافتها إلى [إبهام] فقد أوحت بالخسارة الفادحة ، وضياع العز والملك .

وقد انغمس إبراهيم بن المهدى مع أصحاب الخلاعة والمجون والتهتك وساعد على ذلك كونه ابن خليفة ، بالإضافة إلى روح العصر العباسى وما كان فيه من إباحة ومجون نظراً للانفتاح على الأمم ، وعندما تقدم الشاعر فى العمر أحس بالندم ، ومل هذه الحياة اللاهية العابثة التى كان يعيشها فأنشد وهو يبكى :

ذهبت من الدنيا وقد ذهبت منى ∴ هوى الشيب بى عنها وولى بها عنى (١)
فإن أبكى نفسى أبكى نفساً نفيسة ∴ وإن أحتسبها أحتسبها على خسن

تطالعنا روح الندم المغلف بالحزن فى الأبيات ، ويأتى الرمز فى لفظتى [ذهبتُ وذهبَتْ] ليضئ فضاءات النص ، ويوحى بالحياة اللاهية العابثة ، والانهماك فى الملذات ، وفى نفس الوقت يضئ الجانب الخفى فى حياة الشاعر الذى يمثله الواقع المرير من تقلب صروف الدهر به ، كما أوحت الألفاظ بجو مفعم بالحزن والحسرة والألم ناتج عن المفارقة بين إقبال الدنيا وإدبارها ، مما يجعل النفس تجنح إلى التأمل العميق فى الدنيا التى لاتستقر ، ولذلك حاصر الشاعر ذهاب الدنيا وإدبارها بدائرة الزمن الماضى [ذهبت / ذهبت / هوى / ولى] ، وقد تولد عن ذلك إحساس مفرط بالمرارة والندم مما يجعل الشاعر يرصد لحظات التحول بالزمن المضارع ليعبر عن ندمه بالبكاء فنجد [أبكى / أحتسبها] ، وقد تكررت لفظة [أحتسبها] مرتين لإمعان الشاعر فى ندمه ، وإبداء إصراره على إبرار قسمه بعدم الشرب والغناء ، والتمسك بالتوبة ، ويفسر لنا ذلك مناسبة البيتين عندما أرغمه المعتصم على الغناء فجعل يغنى ويبكى فقال له المعتصم : ما هذا ياعم ؟ قال : حلفت بين يدى الرشيد أنى إذا بلغت

(١) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ٢٢ .

الستين لم أشرب ولم أغن ، قال : ومن يشهد بهذا ؟ قال : جماعة قد بقى منهم مسرور الخادم ، فسأله عن ذلك فشهد له ، فأعفاه عن الغناء والشرب ، فما عاد لذلك إلى أن مات (١) .

ويتخذ الشاعر من الشيب سبباً لزهده فى الملذات ، فكل مرحلة من العمر لها ما يناسبها ، يقول فى تحسرعلى أيام الصبا :

الشيب شين والخضاب عذاب ∴ ولكل حى مهجة ستصاب
قالت إمامة شبت يا ابن محمد ∴ شيباً وشاب أمامة الأتراب (٢)

فالشاعر يواجه محبوبته عندما لامته على الشيب ، وظهور بوادر تنسكه وتوبته عن اللهو، بأنه قد رمى بسيف الشيب فى لهوه ومجونه وهى أيضاً قد أصابها هذا السيف ، وقد أجاد الشاعر استخدام الحوار فى التعبير عن عواطفه ومشاعره ، مما أشاع النبض والحياة فى النص الذى عبر عن فلسفة الزمن التى ترصد مباهج الحياة لتحدث فيها شرخاً ناتج عن ظهور الشيب فى الرأس وهو بمثابة جرس إنذار لقرب النهاية ، ولذلك عبر الشاعر عن هذا التحول بزمن المستقبل (المضارع) [ستصاب] ليوحى بأن الشباب لا يدوم ، ويبدو أن الشيب كان زاجراً للشاعر عن التمادى فى لهوه وملذاته ، وكان دافعاً له ليهجر التصابى والغوانى ، ليكبح جماح النفس ، وعدم الانقياد لهواه ، فيقول :

قليت الصبى وهجرت الغوانى ∴ وسلمت معترفاً للزمان
وأعتقت منطلقاً فى القيا ∴ د بعد الجماح وجذب العنان
كذاك الفتى وصروف الزمان ∴ يحدثن شأنا له بعد شان
رأيت الحياة ولذاتها ∴ معلقة بليال فوان
وإنى صبور لما نابنى ∴ سريع إلى كل حق عرانى (٣)

(١) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ٢٢ .
(٢) المصدر السابق صـ ٢٣ ، ٢٤ .
(٣) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ٣٨ .

سيطر الفعل الماضي على النص في بدايته ليوحي بمدى إصرار الشاعر على التحرر من ماضيه اللاهي العابث ، والذي أصبح في دائرة الزمن الماضي .وبدت الذكريات أثرا بعد عين ، لذلك جاء الفعل الماضي ثلاث مرات في البيت الأول [قليت / هجرت / سلمت].

وللإيحاء بمقاومة الشاعر لرغبات نفسه ، وإصراره على عدم الإستجابة لدواعي الهوى ، والحنين إلى الماضي حيث العبث والمجون استخدم صيغة المبالغة [صبور / سريع] ، وأجاد توظيفها في إثراء تجربته والتعبير عن مكنون نفسه .

وقد كان أبو العتاهية صديقا للشاعر منادما له ، مصاحبا إياه في لهوه ومجونه وعبثه . وعندما ملّ أبو العتاهية هذه الحياة ، ولبس الصوف كتب إليه (إبراهيم بن المهدي) قصيدة يحثه فيها على الزهد وترك الملذات.ويذكره بالموت ويعظه ويوقظه من الغفلة.يقول:

إن المنية أمهلتك عتاهي .·. والموت لا يسهو وقلبك ساهي
يا ويح ذا البشر الضعيف أما له .·. عن غيه قبل الممات تناهي
وكلّت بالدنيا تبكيها وتن .·. دبها وأنت عن القيامة لاهي
العيش حلو والمنون مريرة .·. والدار دار تفاخر وتباه (١)

وهذه الأبيات تشتمل على حكم وعظية فالمرء يلهو والموت يرصده ، وعلى المرء أن يتوب قبل موته ، فالحياة مغرية ، والموت مر ، ويقرر الشاعر أن الزهد الحق يتمثل في العزوف عن الدنيا ، ونقاء السريرة والإيمان العميق بالبعث ، يقول في أسلوب تقريري يقرب من النثر أحيانا :

لا يعجبنك أن يقال مفوه .·. حسن البلاغة أو عريض الجاه
أصلح فساداً من سريرتك التي .·. تلهو بها وأرهب مقام الله
ما الزهد من رجل ألدّ مكدّب .·. بالبعث غير ضلالة وسفاه (٢)

(١) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ٤٧ .
(٢) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ٤٨ .

الشاعر يخاطب أبا العتاهية مخاطبة مباشرة عن طريق العقل لأن غايته هى الإقناع ، ولذا فإن الأبيات تفتقر إلى عنصر العاطفة وحرارتها ، تحتاج إلى الومضات الوجدانية ، والفكرة هنا مسيطرة على الأبيات سيطرة تامة مما جعل الأبيات تأتى فى صورة تقريرية مباشرة ، مجرد نصائح وعظية ، ولم يستطع الشاعر أن يحولها إلى حكم ومواعظ تحمل خبراته وتجاربه إلى زفرات وآهات تتردد على الألسن ، وتجعل النفس تفر من الدنيا الفانية إلى طاعة الله ؛ عندما تعترضها مصاعب الدنيا وهموم الحياة ، ويبدو ذلك فى قول (إبراهيم ابن المهدى):

إن كان لبس الصوف حجتك التى ∴ تدعو النجاة فإننى لك نادى
ما فى يديك من اللباس إذا غوت ∴ منك السريرة غير حبل واهى
لا شئ يقبل منك إلا ما به ∴ حكمت عليك نواطق الأفواه (١)

فالمرء يجب أن يكون ظاهره كباطنه بعيداً عن النفاق والغيبة والنميمة ، فمن ذم الناس ، ذمه الناس ، وعن ذلك يقول إبراهيم بن المهدى :

من قال فى الناس قالوا فيه مافيه ∴ وحسبه ذاك من خزى ويكفيه (٢)

ويحذر الشاعر من مثل هذا الإنسان الذى لا يؤمن جانبه عن الصديق ، وهو يشبه العقارب والأفاعى فى الإيذاء ، كما يشبه السيل الجارف فى الاجتياح والخداع ، وعلى المرء ألا يلجأ إلى الحيل والمكر فى إيذاء الآخرين للحصول على رزقه لأنه مقدر ومكتوب ، فيقول :

من نمّ فى الناس لم تؤمن عقاربه ∴ عن الصديق ولم تؤمن أفاعيه
كالسيل يجرى ولا يدرى به أحد ∴ من أين جاء ولا من أين يأتيه
لو فرّ من رزقه عبد إلى جبل ∴ دون السماء لألفى رزقه فيه (٣)

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ٤٨ .
(٢) ذاته ٣ / ٣٣ .
(٣) ذاته ٣ / ٣٣ .

وهذه الحكم تبدو جميلة ناسبت المعنى الذى يرمى إليه الشاعر، وقد أوحت الألفاظ ؛ وما فيها من حروف المد والإطالة بشدة إيذاء الإنسان الشرير الذى لا يؤمن جانبه فنجد [عقارب / أفاعى / السيل / يدرى / يجرى] ، وتأمل لفظتى [عقاربه / أفاعيه] وما أشاعته من جو مفعم بالخوف المشوب بالحذر ، والرهبة المغلفة بالفزع . كما رصد الشاعر إيذاء هذا الإنسان المستمر بصيغة الزمن المضارع ليوحى بتوقع إيذائه فى أى وقت ، ولذلك سيطر الفعل المضارع على النص [تؤمن / يجرى / يدرى / يأتيه] ، كما استفهم الشاعر بـ [أين] التى يستفهم بها عن المكان (١) ، وقد تكرر الاستفهام مرتين [من أين جاء ..؟ / ومن أين يأتى ؟] ، والاستفهام يتضمن القلق والحيرة والحذر،فعلى المرء أن يحذر مخالطة مثل هذا النموذج الشرير من البشر،ويجب أن يبتعد عنه، لأن إيذاءه متوقع فى أى وقت .

٧ ـ شكوى الزمان والإخوان

بايع قواد بنى العباس إبراهيم بن المهدى بالخلافة انتقاما من المأمون الذى تقرب لأحفاد على بن أبى طالب ، ولكن ما لبث المأمون أن ظفر بعمه "إبراهيم بن المهدى " وهو يحاول الهرب متنقباً بثوب النساء، وقد حبسه المأمون وأخرجه إلى بنى هاشم وبنى العباس على هيئته المتنكرة ليعلموا كيف قبض عليه (٢) ، وقد تنكر له الإخوان ، وتبدلت به الأحوال ، فذهب يشكو تقلبات الزمان وغدرات الخلان ، فى أبيات تشع من ثناياها الحكمة فيقول :

وما الناس إلا عدو الشقى ∴ وإلا صديق امرئ قد سعد

---

(١) انظر مفتاح العلوم للسكاكى ، مراجعة نعيم زرزور صـ ٣١٣ ، دار الكتب العلمية بيروت .

(٢) انظر أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ٤٢ ، وتاريخ الطبرى ٦ / ٤٩٨

إذا ما الزمان بأخلافه ∴ طواك كطي الثياب الجدد
يفيض عليك قداح الردى ∴ لتأخذ منها بقدح نكد
فما أنت إلا أسير له ∴ وإن أمكن الحيد عنه فحد (١)

يعبر الشاعر عن محنته بأسلوب سلس ليس فيه غموض ولا التواء ، ليجلى الحقيقة فى وضوح ، وتكشف أخلاق الناس المتردية التى تحيط بالسعيد ، وتتفرق عن الشقى ، وسرعان ما يتحولون عن المرء إذا غدر به الزمان ، ولجأ الشاعر فى تصوير فكرته إلى أسلوب القصر الذى تكرر ليمعن فى إبراز الصورة الحقيقية للطبيعة البشرية المتلونة ، والتى لا تثبت على مبدأ [فما الناس إلا عدو الشقى / وما الناس إلا صديق امرئ قد سعد / فما أنت إلا أسير] . وجاءت الألفاظ لتوحى بالإحساس والألم لدى الشاعر الذى أخفق فى مسعاه ، فنجد [الشقى / الردى / النكد] ، وتأمل إضافة لفظتى [قداح] إلى [الردى] ، [قدح] إلى [نكد] ، فقد أشاعت جواً مفعماً بالمرارة والندم والذل والهوان الذى لحق بالشاعر .

ويبث الشاعر بعض الحكم فى ثنايا شكواه ، ليعلن استسلامه لقدره ، وكأنه يهرب من واقعه الأليم ، ذلك الواقع المثخن بالجراح الذى لا يستطيع أن يتصدى له ، ويتحرر من أسره ، يقول فى أسى وحسرة :

هبّ الدهر لم يتحامل على ∴ سواك فهل لك منه التؤد
وإن يسقك اليوم من آجن ∴ صرّى لا يذاق ولا يذد رد
فقد كان يسقيك من صفوه ∴ نطاف الغوادى بذوب الشهد
كذلك تجنى صروف الزمان ∴ على ما أردت ومالم ترد
وإن خلط الدهر فاصبرعلى ∴ تلونه فمع اليوم غد (٢)

فالتجربة لدى الشاعر تنمو وتتكامل ، وجاءت فى عبارات تستوفى أداء مدلولها، وقد استفهم فى البيت الأول بـ [هل] وهى

(١) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ٣٩ ، ٤٠ .
(٢) اشعار أولاد الخلفاء ٣ / ٤٠ .

أشد قوة فى الاستفهام،وقد ترمز إلى أن السائل يتوقع الجواب بلا(١)، فالاستفهام يكشف عن أسى الشاعر وندمه لخروجه على طاعة المأمون ، ومطالبته بالخلافة دونه ، كما يكشف عن مسلك الدهر وتقلبه فنجد فيه جبروت ، ودلالة أسلوب الاستفهام على النفى قوى ، وقد لجأ الشاعر إلى أسلوب الاستفهام لمواجهة أحداث إخفاقه فى الخلافة، ويكشف عن الضعف والتهالك أمام الإحساس بتقلب الدهر.

وقد استعان الشاعر لغرض التأثير فى سامعيه بالمحسن اللفظى. فالطباق واضح بين آجن وصفوه ، والمقابلة واضحة بين قوله : لا يذاق ولا يزدرد، والبيت الثانى يسقيك بذوب الشهد، وهذه المحسنات شاعت فى الشعر العباسى وكثر استخدامها فيه حتى اتخذها بعض الشعراء مذهباً يطبقها على جميع أبياته أو جمهورها (٢) وتقلب صروف الزمان على الشاعر جعلته مؤرقاً لا يهنأ بالنوم مما جعل الليل بطيئاً ثقيلاً يقول :

مضى الليل إلا أن ليلى لم يمضى ∴ وأن جفونى لم تـرو من الغمـض (٣)
إذا صد عنك الدهر يوماً بوجهه ∴ تقاضاك من إحسانه سالف القرض

استخدم الشاعر طباق السلب بين الفعلين [مضى / لا يمضى] لتوضيح فكرته ، كما أوحت حروف الإطالة والمد بطول ليل الشاعر وعدم انتهائه ، فنجد [ليلى / يمضى / جفونى] ... ، والمحنة التى تعرض لها الشاعر كانت سبباً فى عزوف الأصدقاء عن مساندته .

---

(١) انظر الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة ، محمد بن على الجرجانى، ت د/ عبد القادر حسين صـ ١٠٥ ، دار النهضة مصر ؛ ومفتاح العلوم للسكاكى صـ ٣٠٨ ؛ والتطور النحوى للغة العربية ، تصحيح د/رمضان عبد التواب صـ١٦٦ ، القاهرة .

(٢) انظر العصر العباسى الأول ، د/ شوقى ضيف صـ ٢٧٨ .

(٣) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ٤١ .

وفرارهم منه متناسين ما أغدقه عليهم من خير فى أيام الرخاء ، مما جعله يتعجب لهذه المفارقة فيقول :

تحامانى الصديق وغاب عنى ∴ ثقات صانعى وهم حضور
وقلوا فى البلاء وكان عهدى ∴ بهم زمن الرخاء وهم كثير
فلم يك فى يدى منهم وممّا ∴ ذخرتهم له إلا الغرور
أيا عجباً أما فى الناس ممّن ∴ تقلد نعمتى رجل شكور (١)

أجاد الشاعر تعامله مع الزمن عندما حصر ابتعاد الأصدقاء عنه، وتنكرهم له على الرغم من فضله عليهم بالزمن الماضى [تحامانى/ غاب / قلوا / تقلد] ، وأوحت حروف الإطالة والمد بالإنكار التام ، والقطيعة الطويلة من جانب أصدقائه . وكأنهم لايعرفونه ، ولم يحظوا بمعروفه ، كما جاءت المقابلة لتمعن فى توضيح صورة الأصدقاء المزرية فى تخليهم عن الشاعر فنرى [غاب / حضور / قلوا / كثير] ، واتكأ الشاعر على صيغة المبالغة للإيحاء بتكالب الناس على المرء وهو غنى [حضور / كثير / شكور] ، والبعد عنه عندما تتبدل حاله ويذهب غناه ، واستفهم الشاعر فى البيت الأخير بالهمزة [أما فى الناس] وهى حرف استفهام أصيل(٢). والاستفهام يفيد التعجب والإنكار، وقد استفهم الشاعر عن وقوع شئ قد حدث وهو تنكرالأصدقاء له ، والاستفهام هنا يجسد حيرة الشاعر فى مواجهة هذا الحدث ، وهى حيرة ذات بعد درامى لأنها تمثيل لموقف إنسانى يكشف فيه الشاعر عن ضعف النفس البشرية وصراعها مع الماديات .

وقد ارتبط " شكوى الزمان والإخوان " بالهجاء عند الشاعر الذى يلوم أصدقاءه ويهجوهم بعدم الوفاء ، والثبات على المبدأ . وتجردهم من القيم الإنسانية الرفيعة ، فيقول :

---

(١) ذاته .
(٢) انظر الإشارات والتنبيهات صـ١٠٣؛وكتاب سيبويه ١ / ٩٩، ١٠٠ .

يـا أيهـا المتشـاوس المتغاضـب ∴ المُعْـرِضُ الجـانى العبـوس القاطـب
لا أنـت لى سَـلْمٌ فتنصـرنى ولا ∴ حـرب إذا نَصَـبُ العـدوّ مناصـب
قلب الزمـان هـواك عـن مناهجـه ∴ إن الزمـان لكـل حـال قالـب (١)

جاءت حروف المد والإطالة لترسم لنا صفات الصديق الذى أمعن فى بعده عن الشاعر ، وغيَّر صورته الحسنة إلى أخرى سيئة وقبيحة فنجد [المتشاوس / المتغاضب / الجانى / الزمان / هواك / منهاج / حال / قالب] .

ويلوم الشاعر هذا الصديق الذى لم يكتف بتنكره ، بل ذهب يكيد للشاعر عند أعدائه فيقول :

يا عاتبى عند أعـدانى ليرضيهم ∴ ويـانعى بيسـير مالـه خطـر (٢)
أظهرت أنك لا أنت العـدو ولا ∴ أنـت الـولى الـذى يُصـفى ويُـدّخر

استخدم الشاعر الطباق فى الكشف عن زيف الصداقة . ويتمثل ذلك فى لفظتى [العدو / الولى] ، وتأمل صيغة الفعل المبنى للمجهول [يُصفى / يُدّخر] وما أشاعته من حكمة وتدقيق فى اختيار الأصدقاء ، لأنهم عون للمرء وقت النائبات ، وبذلك يكشف الشاعر عن الجوهر الحقيقى للصداقة الوفية المجردة من قناع الزيف والتملق .

(١) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ٤٣ .
(٢) ذاته .

المبحث الثالث
ظواهر أسلوبية وفنية فى
شعر إبراهيم بن المهدى
١ ـ الألفاظ والأساليب

احتفظت أشعار إبراهيم بن المهدى بروح القصيدة القديمة ، وشكلها العام ، بعيداً عن التهافت والتستر بالمحسنات ، وجاء ذلك من حيث طريقة الأداء،والصيغ والتراكيب اللغوية والمعجم الشعرى .

وقد عبر فى أشعاره عن بعض الجوانب التى تمس حياته ويربطها بقضايا مجتمعه السياسية والاجتماعية ، وقد جاءت صياغة الشاعر لتعبرعما يجيش فى صدره ، ويمس إحساساته إزاء الحياة والطبيعة ، ومواءمة الصياغة لموضوع القصيدة من أهم عناصرها والتى تتمثل فى الألفاظ وتراكيبها وهى « على جانب كبير من الأهمية ، وقد تقوم به القصيدة دون الألفاظ وصورتها ودلالتها وجوها وتآلفها ، كافية لإبداع القصيد البديع »(١) .

ولم يعن إبراهيم بن المهدى بالصياغة ولذلك فقد جاءت سهلة بعيدة عن التهافت على المحسنات البديعية ، ولم تكن قوية حيث الجزالة والفخامة والرصانة اللفظية ، وربما يرجع ذلك إلى طبيعة شعره التى تتناسب مع كونه مغنياً .

والأسلوب مرتبط بالصياغة دائماً لأنه « اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعانى قصد الإيضاح والتأثير » (٢) . وقد كان للبيئة التى نشأ فيها إبراهيم بن المهدى ، ثم بيئته الخاصة حيث

---

(١) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ، مصطفى عبد اللطيف السحرتى صـ ٤٥ ، ط المقتطف المقطم ١٩٤٨ م .

(٢) انظر دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجانى صـ ٣٦١ . ط المنار ١٣٦٧ هـ .

البيت والخلافة أثر كبير فى معجمه الشعرى ، وهناك مصادر أساسية استخدم منها الشاعر ألفاظ شعره منها :

١ ـ الألفاظ الدينية :

تثقف الشاعر ثقافة إسلامية ونشأ فى بيت علم وخلافة ، وقد أمدته بمفردات دينية وظفها فى تجربته لينقل لنا مشاعره وأحاسيسه، ومن ذلك قوله :

وعفوت عمن لم يكن عن مثله ∴ عفو ولم يشفع إليك بشافع
فرحمت أطفالاً كأفراخ القطا ∴ وعويل عانسة كقوس النازع
قسماً وما أدلى إليك بحجة ∴ إلا التضرع من مُقرٍ خاشع(١)

استمد الشاعر معجمه من القاموس الإسلامى فنجد [العفو / يشفع / شافع / رحمت / التضرع / خاشع] .

وكذلك قوله :

أسعى وأجهد فيما لست أدركه ∴ والموت يكدح فى زندى وفى عصبى
بالله ربك كم بيت مررت به ∴ قد كان يعمر باللذات والطرب
طارت عقاب المنايا فى جوانبه ∴ فصار من بعدها للويل والحرب(٢)

نجد الألفاظ الدينية تشيع فى الأبيات فنجد [الله / ربك / المنايا]

وهناك ألفاظ دينية اختلف مدلولها عند (إبراهيم بن المهدى) عن مدلولها الحقيقى ومنها لفظة [الدهر] ، فهو يستخدمها بمعنى الزمن الجارى يقول :

هب الدهر لم يتحامل على ∴ سواك فهل لك منه القود
وإن خلط الدهر فاصبرعلى ∴ تلونه فمع اليوم غد(٣)

نجد الزمن مرادف للفظة [الدهر] ، ولعل الشاعر يربط فهمه للدهر بالقدر ، ويعنى ما كُتِبَ على الإنسان من مصير ، وعلى المرء

(١) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ١٩ .
(٢) تاريخ بغداد ٦ / ١٤٧ .
(٣) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ٤٠ .

أن يصبر على تقلباته ، فالأمور لا تستقر على حال واحد ، والمرء تتقلب به الحياة بين السعادة والشقاء .

٢ ـ ألفاظ الطبيعة :

يستمد الشاعر ألفاظه من الطبيعة التى أمدته بمفرداتها التى اتسعت للتعبير عن أحاسيسه المختلفة والمتباينة حزينة وسعيدة ، ساخطة وراضية ، ثائرة وهادئة ، ومن ذلك قوله يتغزل :

يا غزالاً لى إليه ∴ شافع من مقلتيه (١)

فالغزال يعبر عما بداخل إبراهيم بن المهدى من رقة وأمل فى حبه المتفتح ، والغزال من الحيوانات المألوفة لدى العربى .

وقوله :

وأرى الغمامة كالعقاب محلقاً ∴ مسودة الأوساط والأكناف
طوراً تبلك بالرذاذ وتارة ∴ تهمى عليك بدلوها الغرّاف

نجد لفظة [الغمامة] كلمة محورية توحى بأهمية ما تحمله من مطر لدى العربى القاطن فى الصحراء ، وهى ترمز إلى الحياة والأمل فى الغد المشرق،وقد دارت حولها ألفاظ [العقاب / الرذاذ / الدلو] ، وهذه ألفاظ تعبر عن بيئته ، لأنها من مقومات الحياة لدى الإنسان العربى .

كما يستمد الشاعر من ألفاظ الطبيعة ما يعبر عن حزنه وألمه ؛ يقول :

إذا الليل أسبل سربالـه ∴ على الأرض واسود وجه البلد
رعيت الكواكب حتى الصبا ∴ ح ودمعى كاللؤلؤ المنسرد (٢)

نجد ألفاظ الطبيعة [الليل/الأرض / الكواكب / الصباح / اللؤلؤ]، وهى ألفاظ تعبرعن بيئة الإنسان العربى القديم ، وقد أوحت لفظة [الليل] بمعاناة الشاعر وآلامه الطويلة فالليل « أشبه شئ بالكابوس،

(١) ذانه صـ ٢٠ .
(٢) أشعار اولاد الخلفاء ٣ / ٣٩ .

يظهر طابع الكابوس على وجه الخصوص شبهاً بكائن خرافى يهاجم الشاعر ، ويجثم عليه .... ، ورغم أن الشاعر يعانى من هذا الكابوس معاناة هائلة ، فإن الإفاقة منه تعنى معاينة الواقع الذى لا يقل عن الليل إثارة لهموم الشاعر » (١) .

وتوجد مصادر متعددة لمعجمه الشعرى ، غير أن هذين المصدرين الطبيعة والدين أكثرهما بروزاً فى شعره ، ولهما من الإيحاءات والدلالات التى وظفها (إبراهيم بن المهدى) للتعبير عما يجيش به صدره من انفعالات وأحاسيس .

ملاءمة الألفاظ للسياق الشعرى

كان إبراهيم بن المهدى ذا حس بمواقع الكلمات ، وإذا كان اللفظ العادى يكتسب قوة شاعرية بارزة إذا دخل فى جملة أو تركيب شعرى ، أو صورة بيانية ، فإن ألفاظ (إبراهيم بن المهدى) كانت عادية ، وإنما تكتسب إيحاءاتها ، ومدلولاتها الشعرية من صياغتها وتركيبها فى السياق الشعرى ، وإذا تأملنا ألفاظ (إبراهيم بن المهدى)، وجدناها تتجانس(٢) « مع المعنى فيكون رقيقاً فى مواضع الرقة ، وقوياً عنيفاً فى مواضع العنف والقوة » (٣) ، وعندما يكون متفائلاً وفرحاً نراه يستخدم الألفاظ المشرقة مثل : [تنشط / الصبوح / أغرّ / محجل / صباحاً] يقول :

إن كنت تنشط للصبوح فإنه ∴ يوم أغرّ محجل الأطراف
فانعم صباحاً وانتنا متفضلاً ∴ ودع الخلاف فليس يوم خلاف (٤)

---

(١) مجلة فصول ، الليل والنهار فى معلقة امرئ القيس ، محمد حمد بربرى صـ ٢٨ ، المجلد ١٤ ، العدد الثانى ، صيف ١٩٩٥ م .
(٢) الأدب وفنونه ، د/ محمد مندور صـ ٢٩ ، ط ٢ دار نهضة مصر .
(٣) الشاعران المتشابهان ، أبو القاسم بدرى صـ ٩ ، ط دار المعارف مصر .
(٤) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ٣٥ .

وهنا نجد ألفاظه كلها مرحة مشرقة بيضاء لامعة ، توحى بالأمل والفرح ، وتبعث البهجة والتفاؤل ،تامل ما توحى به لفظة [الصبوح / صباحاً] من إشراق وأمل وسعادة ، وكذلك لفظة [يوم] التى أضفى عليها صفات [أغرّ / محجل] لتوحى بجو معبق بالسعادة والنشوة ، وقد اكتسبت إيحاءاتها من تشخيص اليوم بالخيل فى صورة محسوسة .

كما تأتى ألفاظه فى الغزل رقيقة وعذبه ، ليس فيها غموض مثل : [المحب / ذبت / أحب / حبى] ، يقول :

وقائل لست بالمحب ولو ∴ كنت محباً لذبت مذ زمن
فقلت قلبى مكانم بدنى ∴ حبى فالحب فيها مختزن
أحب قلبى وما درى بدنى ∴ ولو درى لم يقم به البدن (١)

.. وإذا تحدث (الشاعر) عن تقلبات الدهر ، وما لقيه من نكران الإخوان له ، فإنه يستخدم ألفاظاً قاتمة مظلمة توحى بكآبة نفسه ، وينفث فيها آهاته وآلامه ، يقول :

ومن نمّ فى الناس لم تؤمن عقاربه ∴ عن الصديق ولم تؤمن أفاعيه
كالسيل يجرى ولا يدرى به أحد ∴ من أين جاء ولا من أين يأتيه (٢)

ألفاظه هنا تخلق جواً من الفزع والخوف والرهبة مثل [عقاربه / أفاعيه / السيل] كلها ألفاظ تدور حول الغيبة والنميمة ، وكلها تعبر عما فى الحياة من صراع ، ، وأحقاد ، ونفاق ، وهى توحى بخيبة الأمل التى تسيطر على إحساسه ، عندما رأى غدر الأصدقاء وتقلبهم عليه مما يشيع جواً من الكآبة والأسى،وقد جاء الاستفهام بـ [أين] ليرتبط بمشكلة من أكثر المشكلات إلحاحاً على وعى الشاعر لتتضمن لوماً وتوبيخاً وإنكاراً على هؤلاء المنافقين الذين

(١) الظرف والظرفاء ، لأبى الطيب محمد بن أحمد الوشاء ، تحقيق فهمى سعد ، صـ ١٢٧ ؛ عالم الكتب بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٨٥ م .
(٢) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ٣٤ .

يغتابون الناس [من أين جاء ؟ / من أين يأتيه ؟] ، وتكرار أين يكشف عن شدة حيرة الشاعر، فكأنما ضاق المكان بهؤلاء المنافقين.

وإذا تحدث عن تبدل حاله بعد أن كان ينعم بالاحترام ويحظى بالنعيم وهو فى دار الخلافة ، جاءت ألفاظه تشيع جواً من الحسرة والألم والندم على الأيام الخوالى مثل[عدو/الشقى / الردى / النكد] . ويقول :

وما الناس إلا عدو الشقى ∴ وإلا صديق امرئ قد سعد
إذا ما الزمان بأخلافه ∴ طواك كطى الثياب الجدد
يفيض عليك قداح الردى ∴ لتأخذ منها بقدح نكد (١)

إنه يعبر عن فجيعته وحسرته لانحسار أيام عزه ، وتبدل حاله . وبعد الناس عنه ، وهذه طبيعتهم ، وتأمل لفظة [قداح / قدح] وما أوحت به من المهانة والذلة والضيم والضيق والألم ، وقد ألقت بظلالها على الحياة البائسة بعد إضافتها إلى لفظتى [الردى/ نكد] . وهذه الحياة البائسة القاتمة جعلت (إبراهيم بن المهدى) يبكى سوء حظه ، وذهاب دنياه عنه ، يقول :

فإن أبكى نفسى أبكى نفساً نفيسة ∴ وإن أحتسبها أحتسبها على نكد (٢)

إنه يعبر عن فجيعته فى حياته ، وينعى حظه العاثر . تأمل ما توحى به تلك اللفظة البسيطة [أبكى] من أجواء نفسية باكية حزينة يائسة ، مما جعله يكررها فى المقطع الأول من البيت مرتين . وهذا يوحى بشدة آلامه التى بلغت ذروتها ، فقد عصفت أعاصير الحياة بقلبه ، ويتحسر على نفسه ، وما أصابها من هموم وكدر ، ولذلك كررها مرتين [نفسى / نفساً] .كما ينتشر فى البيت حرف [السين] وهو حرف مهموس يوحى بانكسار النفس ، وحزنها وألمها .

---

(١) أشعار اولاد الخلفاء ٣ / ٣٩ .
(٢) ذاته ٢٢ .

وفى مواقف الاعتذار للخليفة (المأمون) يستخدم (إبراهيم بن المهدى) الألفاظ اللينة الهادئة التى توحى بالشفقة، وتستدر العطف ، كما تعكس أجواء نفسه المنكسرة الذليلة يقول :

وأستغفر الله من زلتى ∴ فإنى من جرمها واجم
عصيت وتبت كما قد عصى ∴ وتاب إلى ربه آدم
فقل قول يوسف لاتثربُ ∴ ن فقد يغفر الغافر الراحم
فلست إلى زلة عائداً ∴ يد الدهر ما قعد القائم (١)

وهنا نجد ألفاظه كلها تكتسى بثوب الإستحياء والندم مثل [أستغفر / زلة / واجم / عصيت / تبت / الغافر / الراحم] ، هنا تتجانس الألفاظ مع المعنى ، وتأتى موحية بالجو النفسى المنكسر ، وهى ترسم صورة متكاملة لتبدل حاله ، وانقضاء أيام عزه ، وهى ألفاظ هادئة تعبر عن هدوء حزنه ، وإظهار ندمه .

وإبراهيم بن المهدى مرهف الإحساس والشعور ، يجيد استخدام اللغة ويعزف على أوتارها فى التعبير عن مكنونات صدره ، مما جعله يستخدم ألفاظها فى دقة ، فيجعلها نكرة أو معرفة ، ويستخدم الزمن الماضى أو المضارع كل فى موضعه ، يقول :

أثنى عليك بما جددت من نعم ∴ وما شكرتك إن لم أثن بالنعم (٢)

فتنكير كلمة [نعم] تفيد الكثرة والشمول ، فخير الخليفة كثير على الشاعر وغيره ، وقد عرّف كلمة [النعم] لتوحى بكثرة عطايا (المأمون) على الشاعر خاصة ، ولذلك فهو دائم الثناء عليه معترفا بفضله ، ولذا حاصر الشاعر الزمن بدائرة المضارع والاستقبال فنعم المأمون كثيرة وعطاياه متجددة ومستمرة ، مما يستوجب شكره دائماً، كما استخدم الشاعر الفعل المبنى للمجهول استخداما دقيقا يناسب معنى الاعتذار والتنصل من الذنب ، يقول :

ظُلمتُ فإن قلت لا بل ظلمـ ∴ تَ فإنى أنا الكاذب الآثم (٣)

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء ٣ /٢١ .
(٢) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ١٩ .
(٣) المصدر السابق .

فالفعل المبنى للمجهول [ظُلمتُ] يعبر أدق تعبير عن طبيعة الصراع على الحكم ، ويتنصل (إبراهيم بن المهدى) من تهمة التآمر على الخليفة (المأمون) وينسبها إلى الوشاة ، ويحتال فى ذلك ، ويعتذر للمأمون عن تصديق الوشاة ، ويقر بذنبه بغية استمالة قلب الخليفة ، مما جعله يأتى بأكثر من مؤكد [فإنى أنا الكاذب] . فنرى كثرة المؤكدات : [إن / والضمير أنا / والجملة الإسمية المعرفة الكاذب ...]

... كما يستخدم الفعل الماضى فى مكانه المناسب من التجربة . يقول :

قليت الصبى وهجرت الغوانى ∴ وسلمت معترفاً للزمان
كذاك الفتى وصروف الزمان ∴ يحدثن شأناً له بعد شان(١)

نجد سيطرة الفعل الماضى الذى جاء ثلاث مرات [قليت / هجرت / سلمت] ، ليوحى بتقلب الدهر وتبدل أحواله ، وفرضه سلوك معين على المرء ، ولذلك حاصر الأحداث بالزمن الماضى ، إمعاناً فى تأكيد طبيعة الزمان التى لا تستقر ولا تدوم على حال .

وهكذا نجد ألفاظ (إبراهيم بن المهدى) تمتاز بالسهولة واليسر وعدم الإبتذال ، كما أنها تمتاز بالدقة ، وجاءت فى موضعها من التجربة لتوحى بمعناها المناسب .

(١) ذاته صـ ٣٨ .

التصوير الشعرى

تعد الصورة الشعرية من الأشياء المهمة التى تساعد الشاعر فى صياغة قصيدته ، وتجسيد الأبعاد المختلفة لآفاق رؤيته الشعرية، فبواسطة الصورة يشكل الشاعر أفكاره وخواطره وأحاسيسه ومشاعره فى شكل فنى محسوس ، وبواسطتها يصور رؤيته الخاصة بالوجود ، والعلاقة الخفية بين عناصره (١).

وصور إبراهيم بن المهدى بسيطة واضحة ، تستمد خيالها من البيئة المحيطة به ، ومن ذلك قوله :

فرحمت أطفالاً كأفراخ القطا ∴ وعويل عانسة كقوس النازع(٢)

فالصورة هنا بسيطة مفردة ، صور أطفاله كأفراخ القطاة فى الضعف ، وعدم اعتمادهم على أنفسهم ، كما صور حزن امرأته وصراخها كقوس النازع ، وهى صور مستمدة من بيئة الشاعر .

ومن ذلك تصوير حبيبته بالغزال على عادة الشعراء القدماء . يقول :

يا غزالاً لى إليه ∴ شافع من مقلتيه (٣)

وكذلك يصورها بالهلال،ويصور قوامها بالغصن الرطب ،يقول :

يا هلالا وصل اللـ ∴ ـه به غصناً رطيباً
كلما زدناك لحظا ∴ زدتنا حسنا وطيبا (٤)

كما يصور (النمّام) الذى يغتاب الناس ، ويتعرض لهم بالأذى فى صورة العقارب والأفاعى :

من نمّ فى الناس لم تؤمن عقاربه ∴ عن الصديق ولم تؤمن أفاعيه(٥)

---

(١) انظر أبوالقاسم الشابى ، د/ عبد الحفيظ محمد حسن ص ١٩٧ ، مطبعة التيسير القاهرة .
(٢) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ٢٠ .
(٣) ذاته ٣٤ .
(٤) المختار من قطب السرور ٢٤٤ .
(٥) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ٣٤ .

.. ويلجأ (إبراهيم بن المهدى) إلى التشخيص فى تصويرأفكاره وأحاسيسه إلى صور حية نابضة تتحرك ، ومن ذلك اعتذاره للخليفة المأمون :

وقام علمك بى فاحتج عندك لى .·. مقام شاهد عدلٍ غير متهم

يصور الشاعر معرفة الخليفة به وبأخلاقه ومعتذارا إليه . فنراه يشخص العلم فى صورة كائن حى يتحرك ويدافع عن الشاعر فيبرأه مما نسب إليه [وقام علمك بى / فاحتج عندك لى] ، وكذلك قوله : (١)

إن كنت تنشط للصبوح فإنه .·. يوم أغرّ محجل الأطراف

فقد شخص اليوم فى صورة كائن حى [الخيل] ينبض ويتحرك، وأيضاً قوله : (٢)

إذا صد عنك الدهر يوماً بوجهه .·. تقاضاك من إحسانه سالف الدهر

تأمل هذه الصورة التى رسمها للدهر ، فنراه متناقضاً يجمع بين الإحسان والإساءة ، بين العطاء والسلب ، لا يصفو لأحد ، ولا أمان له ، فالدهر كائن حى يحس ويتحرك ومن طبعه تقلب الأحوال بين الغنى والفقر ، والصحة والمرض ، والسعادة والشقاء .

وهكذا نجد المجردات قد أحالها (إبراهيم بن المهدى) إلى كائنات حية نابضة بالحياة والحركة ، توحى بتجربته فى الحياة . وتعبرعن إحساسه وشعوره إزاء تقلبات الحياة وعدم استقرارها .

والتصوير الشعرى عند الشاعر يجنح إلى الصورالجزئية ، فى قالبها التشبيهى المألوف ، ولم يتجاوزها إلى الصور الكلية . حيث الاغراب والعمق فى الصورة ، والبعد فى الخيال ، وربما يرجع ذلك إلى طبيعة الشاعر الغنائية ، فهو مغنى يصوغ أشعارد لتناسب فن الغناء .

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء ٣/ ٣٥ .

(٢) ذاته صـ ٤١ .

٣ ـ الإيقاع الشعرى

إن إبراهيم بن المهدى فى أشعاره ألزم نفسه بالقالب الخليلى المتوارث ، ولم يخرج عليه ، وقد شاع فى شعره نظام المقطوعات . وذلك لتأثير «الغناء حينذاك فى موسيقى الشعر وألحانه إذ ساد فيه نظم المقطوعات القصيرة فى الغزل،وأخذ الشعراء يصفون موسيقاهم حتى غدت بعض تلك المقطوعات أنغاماً خالصة ، وقد مضى شعراء الغزل يعدلون غالباً عن النظم فى الأوزان الطويلة المعقدة إلى النظم فى الأوزان الخفيفة البسيطة . فإن ألمّوا بالأوزان الأولى جزؤوها غالباً حتى تحمل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام مجهورة أو مهموسة ، ونجد القصيدة الطويلة تكاد تختص بالشعر الرسمى : شعر المديح والرثاء ، بينما تشيع المقطّعات فى الغزل والهجاء والمجون والزهد والحكم ، ومضى الشعراء ينظمون على هدى الشعراء الأمويين فى الأوزان الخفيفة والمجزوءة»(١).

وعندما نتصفح شعر(إبراهيم بن المهدى)نجده يمثل هذا الاتجاه تمشيا مع عصره لأنه مغنى من الطراز الأول،وقد كان من كبار المغنيين فى عصره ، وقد جاءت معظم أشعاره على البحور البسيطة مثل (بحر الكامل) وذلك فى قوله :

يا خير من ذملت إليه مطية ∴ بعد الرسول لآيس أو طامع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله ∴ عفو ولم يشفع إليك بشافع
إلا العلو عن العقوبة بعدما ∴ ظفرت يداك بمستكين خاضع(٢)

نرى فى الأبيات النغمة الهادئة والتى تسرى فيها العاطفة الحزينة المفعمة بالألم فى ألفاظه مثل [مستكين / خاضع] ، وقد جاء حرف العين روياً للقافية « الأمر الذى يلفتنا إلى ما فى جرس العين من مرارة وتعبير عن الوجع والجزع والفزع والهلع »(٣).

---

(١) انظر العصر العباسى الأول ، د/ شوقى ضيف صـ ١٩٣ .
(٢) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ١٩ .
(٣) موسيقى الشعر العربى بين الثبات والتطور ، د/ صابر عبد الدايم صـ ١٦١ ، مكتبة الخانجى .

كما نظم أبياتاً على بحر المتقارب منها :

أيا منعماً لم تزل مُفضلاً ∴ أدام الضنى سخطك الدائم
ظلمتُ فإن قلت لا بل ظلمـ ∴ تّ فإنى أنا الكاذب الآثم
وأستغفر الله من زلتى ∴ فإنى من جرمها واجم
فها أنا العائد المستجير ∴ فاحكم بما شئت يا حاكم(١)

وتسرى فى الأبيات النغمة الهادئة المشوبة بالإنكسار والحزن والألم لأن الشاعر فى موقف الاعتذار إذ يشعر بالضعف والهوان على نحو ما يلقانا فى ألفاظه مثل [الضنى/السخط/الظلم/الكاذب/الآثم/الجرم/واجم..] .

كما ينظم الشاعر أبياتاً على مجزوء الرمل فى الغزل ، يقول :

يا غزالاً لى إليه ∴ شافع من مقلتيه
والذى أجللت خدّ ∴ يه فقبلت يديه
بأبى وجهك ما ∴ أكثر حسادى عليه
أنا ضيف وجزاء الـ ∴ ضيف إحسان إليه (٢)

فالنغم عال فى الأبيات يتلاحق فى سرعة وخفة ، ويناسب الأجزاء التصويرية اللحنية .

... ويأتى (إبراهيم بن المهدى) بأبيات على بحر البسيط فى مدحه للمأمون عندما عفا عنه منها :

رددت مالى ولم تمنن علىّ به ∴ وقبل ردك مالى ما حقنت دمى
فبؤت منه وما كافأتها بيدٍ ∴ هى الحياتان من موت ومن عدم (٣)

والنغم فى النص هادئ وحزين ، ويتذكر الشاعر عفو المأمون عنه ، ورد ماله إليه ، وأعتق رقبته من القتل ، ويتناسب ذلك مع طبيعة بحر البسيط الإيقاعية التى « تتفق مع الشجن ، والتنكر والحنين ، وهو يكثر فى الشعر الفصيح والشعبى ... »(٤) .

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ٢١ .
(٢) أشعار أولاد الخلفاء ٣ / ٢٠ .
(٣) ذلته ١٩ .
(٤) انظر دراسات فى النص الشعرى ، د/ عبده بدوى صـ ٧٢ . دار الرفاعى بالرياض ١٩٨٤م ، ط٢ .

الخاتمة

بعد هذه السياحة الأدبية فى شعر (إبراهيم بن المهدى) يتضح لنا أن شعره ذاتى يصور نفسيته ، وما اختلج فى صدره من عواطف وأحاسيس ، كما صوره فرحاً أو حزيناً ، أو حين يمدح ، أو يتغزل . أو يعاتب ، أو يشكو من الزمان والإخوان ، جاء كل ذلك فى تجربة شعرية صادقة ، وجاءت ألفاظه سهلة لا غموض فيها ولا التواء . تعكس لنا شخصيته الحضرية ، وتترجم حياته المنعمة . فهو ابن الخليفة المهدى الذى تنعم فى الحياة حيث الرفاهية ، وجاءت المعانى بسيطة لا عمق فيها ، وصوره قريبة ، ويرجع ذلك إلى طبيعته الغنائية ، فقد كان يصوغ الشعر ليغنى به ، أو تغنيه القينات ، وقد جاءت أشعاره فى شكوى الزمان والإخوان تفيض بالألم والحسرة . حيث تكشف لنا التقلبات السياسية فى العصر العباسى . وما كان يتبعها من صراعات على الحكم وتعد أشعار (إبراهيم بن المهدى) وثيقة إجتماعية تسجل حياة الترف والرفاهية التى كان يعيشها خلفاء بنى العباس وأمراؤهم ، وما كانوا فيه من بذخ وإسراف ، على حين كان الشعب يعانى شظف العيش والحرمان ، كما يصور الانفتاح الثقافى وأثره فى تغيير وجه الحياة العربية .

المصادر والمراجع

١ ــ إبراهيم بن المهدى ، الشاعر الأديب الفنان ، د/ محمد عارف حسين ، مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية ١٩٨٨م .

٢ ــ أبو تمام شاعر الخليفة ، د/ عمر فروخ ، ط المكتب التجارى بيروت ١٩٦٩ م .

٣ ــ أبو القاسم الشابى ، د/ عبد الحفيظ محمد حسن ، مطبعة التيسير القاهرة .

٤ ــ الأدب وفنونه ، د/ محمد مندور ، ط دار نهضة مصر .

٥ ــ أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ، دار السيرة بيروت ١٩٨٨م .

٦ ــ أشكال التناص الشعرى ، أحمد مجاهد ، النهضة المصرية العامة للكتاب .

٧ ــ الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة، محمد بن على الجرجانى. ت د/ عبد القادر حسين ، طبعة دار النهضة مصر .

٨ ــ الأغانى لأبى فرج الأصفهانى ، ط ساسى ؛ ط دار الكتب العلمية بيروت .

٩ ــ تاريخ بغداد لأبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى . دار الكتب العلمية بيروت .

١٠ــ تاريخ الطبرى ، ت د/ عبد الأعلى محمد ، مؤسسة الأعلام للمطبوعات بيروت .

١١ــ التطور النحوى للغة العربية،تصحيح د/رمضان عبدالتواب.القاهرة.

١٢ ــ دراسات فى النص الشعرى ، د/ عبده بدوى ، دار الرفاعى بالرباط ١٩٨٤م ، ط ٢ .

١٣ــ دلائل الإعجاز،عبد القاهر الجرجانى،ط المنار ١٣٦٧هـ .

١٤ــ الشاعران المتشابهان،أبوالقاسم البدرى،ط دار المعارف مصر .

١٥ــ الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ، مصطفى عبداللطيف السحرتى ، ط المقتطف ١٩٤٨ م .
١٦ــ الشعر والشعراء فى العصر العباسى ، د/ مصطفى الشكعه ، دار العلم للملايين بيروت .
١٧ــ الظرف والظرفاء، لأبىالطيب محمد بن أحمد الوشاء ، تحقيق فهمى سعد، عالم الكتاب بيروت ــ الطبعة الأولى ١٩٨٥م.
١٨ ــ العصر الجاهلى، د/ شوقى ضيف، ط١٦ دار المعارف مصر.
١٩ــ العصر العباسى الأول، د/ شوقى ضيف، ط ٦ دار المعارف مصر .
٢٠ــ العقد الفريد لابن عبد ربه ، ت / أحمد أمين ٦ /٣٦ ، ط دار الكتاب العربى بيروت ١٩٨٣م .
٢١ــ العمدة لابن رشيق ، ط أمين هندية .
٢٢ــ الكتاب لسيبويه، ت / عبد السلام هارون ، النهضة المصرية العامة للكتاب ، الخانجى القاهرة .
٢٣ــ مجلة فصول ، المجلد ١٤، العدد الثانى ، صيف ١٩٩٥م.
٢٤ــ المختار من قطب السرور للرقيق القيروانى ، ت/ محيىالدين عبدالحميد ، دار الجيل بيروت ط ٥ عام ١٩٨١ م .
٢٥ــ مذكرات فى الأدب العباسى ، د/ أمين إبراهيم ، منشورات الجامعة المفتوحة ، ليبيا .
٢٦ــ مفتاح العلوم للسكاكى ، مراجعة نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية بيروت .
٢٧ــ موسيقى الشعر العربى بين الثبات والتطور ، د/ صابر عبدالدايم ، مكتبة الخانجى .
٢٨ــ وفيات الأعيان لابن خلكان ، ت / إحسان عباس ، ط دار الثقافة بيروت .